نِظْرَةٌ مَسِيحِيَّة فِي الإِسْلام



نِظْرَةٌ مَسِيحِيَّة

فِي الإِسْلام

أ. جوزف قزّي

(طبعة ثانية منقّحة)

نسبَيه ٢٠٠٤

مقدّمة

ليس علينا أن نعالجَ، في هذا البحث، العلاقةَ التاريخيّة بين المسلمين والمسـيحـيّين؛ ولا أن نتطرّق إلى مـوضوعـات الحوار بينهـما؛ ولا أن نقرّب وجـهات النظر المخـتلفة؛ ولا أن نقبلَ أو نرفضَ العيـشَ المشترك في مجتـمع مدنيٍّ واحد؛ ولا أن نتـســامحَ ونتعـانق من دون أسسٍ لاهـوتيّة وإنسـانيّـة صحيحة، ولا أن نتصادم أو نتقاتل من أجل أيِّ قيمة..

بل إنّنا نعـالج العلاقةَ بين المـسيحـيّين والمسلمين من طرف واحد، أي: من طرف المسيحيّين فـحسب. كما إنّنا نبيّن، بصـدقٍ وصراحةٍ ووضـوحٍ، نظرةَ المسـيحيّين إلـى الإسلام والمسلمين، في مـختلف الموضوعـات اللاّهوتيّة والإنسـانيّة، وعلى كلِّ صعيدٍ فكريٍّ أو واقعي.

لقـد بات لدينا واضـحـاً أنّ الوضـوحَ في الكلام على الموضوعـات الدينيّة الشائكة يبني مجـتمعاً سليـماً؛ وينشئ

دولةً متحضّرة؛ ويؤسّس لثقافة متطوّرة؛ ويحلّ مشاكلَ حياتيّةً مستعصية؛ ويواكب الإنسانَ في مسيرة حضاريّة راقية؛ ويوصل إلى مصيرٍ أمينٍ عبر طريقٍ فكريٍّ واضح.

إستناداً إلى هذا نقول :

ليس للمسيحيّة من **المسلم**، كإنسان، إلاّ نظرةٌ واحدةٌ لا غير؛ فيما لها من **الإسلام** و **القرآن** و **محمّد**، نظرات مختلفة في الصميم عن نظرات المسلمين أنفسهم.

وهذا ما سنتبيّنه استناداً إلى المصادر الإسلاميّة الأساسيّة نفسها، وإلى المعطيات اللاّهوتيّة والتاريخيّة التي نشأ الإسلامُ في بيئتها ومجتمعها.

ألفصل الأوّل
نظرة مسيحيّة إلى المسلم

هناك مبدأ مسيحيٌّ عامٌّ وشامل، ينطلق منه المسيحيّون، كلَّ مرّةٍ يتناولون الإسلامَ في أبحاثهم، أو يتكلّمون على المسلمين. ألا وهو مبدأ محبّة الإنسان للإنسان من حيث هو إنسان. هذا الإنسان، أيّ إنسان، أحبّه اللّهُ، فخلقه، وخلّصه.

فالمسيحيّون، إذاً، إنطلاقاً من هذا المبدأ، يخونون مسيحيّتَهم إن كان لهم من المسلمين، أو من أيِّ إنسانٍ آخر، أيُّ موقفٍ رافضٍ. وقد لا يكون اللّهُ إلهاً، ولا المسيح مسيحاً، ولا المسيحيّة يكون لها معنىً، إنْ كان لهذه المسيحيّة أيُّ رفضٍ لأيٍّ إنسان.

هذه حقيقةٌ كاملةٌ. لا تحتمل تأويلاً ولا اجتهاداً.

فمـهما كانت الظروف والأسـباب والدوافع والأهداف والمبرِّرات... لا يكون المسـيحيّون مـسيحيّين إن أبغـضوا أيَّ إنسانٍ؛ أو خاصموه؛ أو صنّفوه؛ أو اتّخذوا منه موقفاً رافضاً بسبب دينه، أو انتمائه، أو عِرقه، أو خيره أو شرّه...

فاللّهُ نفسُه، في تعاليم المسيـحيّة، «يَطلُعُ بشَمْسِهِ على أشرارٍ وأخـيار، ويَهـمي بغَيـثِهِ على أبرارٍ وفُـجّار»[١]. فهل يكون المسيحيّون حـريصين على اللّه أكثر من اللّه نفسه على نفسه!! وهل كلّف اللّهُ إنساناً ليدافع عنه على حسابِ إنسان؟

مـوقفُ المحـبَّة والانفـتـاح هذا، هو عنوان الإنجـيل، ومخـتصَرُ المسـيحيّـةِ، ولبُّ تعاليمِـها، وأسُّ عمل الكنيـسة، وصميمُ رسالة المسيح.

لنقف قليـلاً، ونـذكـر معـاً، بـعضَ تعـاليم الإنجـيل الأساسيّة في هذا الشأن :

١ ". لنذكر **مَـثَلَ السامـريّ**، حيث واحـدٌ من «علماء الشريعـة قال ليـسوع: "يا مـعلِّم!.. ومَن قريبي؟ ". فـأجاب يسوع: كـان إنسانٌ (يهودي) نازلاً من أورشـليم إلى أريحا،

---

(١) إنجيل متى ٣/٤٥.

فـوقع في أيدي لصـــوص.. واتّفق أن رآه كـاهن. فـتـركـه ومضـى.. وجاز لاويٌّ كـذلك من هناك فرآه فتـركه ومضـى.. ومرّ به سامريٌّ[٢] فرآه، فرَقَّ لـه، وضَمَّدَ جِراحَه، ثـمّ أركبَه مطيَّتَه، وذهبَ به إلى فُنْدقٍ، واعتنَى به..

وسأل يســوعُ العالِمَ بـالتوراة: "فمـا رأيُكَ؟ أيُّ هؤلاءِ الثـــلاثةِ كـــانَ قـــريبَ ذلك الـرّجلِ الذي وقعَ فـــي أيدي اللّصوص"؟ قـال العالِمُ بالتّـوراة: "ذلك الذي رَحِمَـهُ". قال يسوع: "امْضِ، وافْعَل أنتَ أيضـاً كما فَعَل"»[٣].

وهل على المسيـحيّ، الذي يقتـدي بالمسيح، ويتبـعه، ويُسمَّى باسمه، أن يفعل غـير ذلك؟ وإنْ فعل غيرَ ذلك أيكونُ مسيحيًا حقًّا!

٢". ونذكر أيضـاً **قول يسوع**: «إنْ جِئتَ تُقرِّبُ على المذبحِ قـربانَكَ، وذكـرتَ لأخـيكَ شـيـئـاً عليكَ، فـدعْ هنالكَ قربانَكَ، وبادرْ فصالِحْ **أوّلاً** أخاكَ. ثمّ عُدْ وقرّبْ قربانَكَ»[٤].

---

(٢) ألعداوة بين اليهود والسامريّين قديمة ولدودة.

(٣) إنجيل لوقا ١٠/ ٢٩-٣٧.

(٤) إنجيل متى ٥/ ٢٣-٢٤.

هذا يعني: أتركْ القربانَ والذبيحة والصلاة والعبادة والمذبحَ والهيكلَ واللّهَ نفسَه... واذهبْ إلى أخيكَ، **أوّلاً**، صالحْه، أحببْه، اغفرْ له، تُبْ إليه... ثمّ عُدْ إلى اللّه، وقرّبْ قربانَك فيَقبَل اللّهُ منك قربانَكَ وما تشاء من طلبات.

والأفضل أن تعودَ مع أخيك؛ لأنّه، «ما اجتَمَعَ اثنانِ أو ثلاثةٌ باسمي إلاّ وكنتُ هنالِكَ بينَهم». فلكأنّ اللّهَ لا يكون في غير الإنسان المحبِّ المنفتح على أخيه. و«إذا اتّفق اثنانِ منكمْ في الأرضِ على أيِّ سؤالٍ استجابَ اللّه لهما»(٥).

فالإنسان هو مسكنُ اللّه ووجهه وتجلّيه الحقيقي ومكان عبادته. ولا مسكنٌ للّه ولا عبادة إلاّ في الإنسان ومعه وبواسطته، ومن أجله أيضاً.

٣". ونذكر أيضاً **مَثَلَ العبدِ القاسي** : يقوم هذا المثل على أنّ مَن يلتمس من اللّه أن يغفر له، وهو لا يغفر لأخيه، فاللّه لن يغفر له... يقول يسوع : «وكذا يَفعَلُ بكم أبي السّماوي، إنْ لمْ يَغْفِرْ مِنْ قَلْبِهِ كُلُّ واحدٍ لأَخِيْهِ»(٦).

---

(٥) إنجيل متى ١٨/ ٢٠ و١٩.

(٦) أنظر مثل العبد القاسي في متى ١٨/ ٢٣-٣٥.

٤". ونذكر أيضاً قول يسوع **في ما علّمنا من صلاة،** حيث قال: «واعْفُ عنّا ذُنوبَنا عَفْوَنا عمَّن أذنبَ إلينا»[٧]. ألمعادلة واضحة : «إنْ تَغْفروا للناس زَلاّتِهم يَغْفِرْ لكم أبوكم السماوي. وإنْ لمْ تغفِروا للنّاس فأبوكم لن يَغْفِرَ لكم»[٨].

٥". ونذكر أيضاً تعليم يسوع **في محبّة الأعداء**[٩]. قال : «سمعتم ما قيل : أَحْبِبْ قريبَك، وأبغِضْ عَدُوَّك. أمّا أنا فأقولُ لكم : أَحِبُّوا أَعْداءَكم، وصَلُّوا من أجلِ مضْطَهِديكم، تكونوا أبناءَ أبيكم السماويِّ، ألذي يَطلُعُ بشَمْسه على أشرارٍ وأخيار، ويَهمي بغَيثِه على أبرارٍ وفُجّار. إنْ تُحِبُّوا مَن يُحبكُّم فعلامَ الثّواب؟ ألا يفعلُ ذلك الجباة؟ وإنْ تُخصّوا إخوتَكم بسلامكم فأيَّ خارقٍ تأتُون؟ ألا يفعل ذلك الوثنيّون؟»[١٠].

هل بعد هذا من كلامٍ في احترامِ الإنسانِ لأخيه الإنسان، ومحبّته، والصلاة من أجله!! هل يحقُّ للمسيحيِّ، بعد هذا الكلام، أن يُصنّفَ البشرَ إلى أبرار وفجّار! أو إلى

---

(٧) متى ٦/ ١٢.

(٨) متى ٦/ ١٥.

(٩) متى ٥/ ٤٣؛ أنظر لوقا ٦/ ٢٧–٢٨ و٣٢–٣٦

(١٠) متى ٥/ ٤٣–٤٧.

مؤمنين وكافرين! أو إلى أصدقاء وأعداء! ومَن يصنِّف أيكون مسيحيًّا، أو يعرف المسيح، أو هو من أتباعه والمقتدين به؟!

٦". ونذكر قول يسوع عن **الذين يرثون الملكوت،** قال: «لأنّي جُعتُ فأَطْعَمْتُمُوني، وعَطِشتُ فسقَيتموني، واغْتَربتُ فآوَيتموني، وعَريتُ فكسوتُموني، ومَرِضتُ فعُدتُموني، وسُجنتُ فزُرتُموني.

«ويسألُه الأبرار: متى رأيناكَ، يا ربُّ، جائعاً فأطعمناك، أو عطشانَ فسقيناك؟ ومتى رأيناكَ غريباً فآويناك، أو عارياً فكسوناك؟ ومتى رأيناكَ مريضاً، أو سجيناً، فزرناك؟ فيُجيبهم : ألحقَّ أقولُ لكم: كلّما صَنَعتم هذا إلى أحدِ إخوتي الصغار هؤلاء فإليّ صنعتموه».

أمّا الذين يذهبون إلى عذابٍ أبديّ فهؤلاء هم الذين لم يصنعوا شيئاً من هذا إلى أحد[١١].

فلكأنَّ المسيح والإنسان، ولا سيّما الإنسان الضعيف والمحتاج، سيّان. فمن خدم الإنسانَ خدم المسيح عينَه. ومَن لم يفعل خيراً مع الإنسان فمع المسيح لم يفعل. وقد لا يكون

---

(١١) متى ٢٥/ ٣١-٤٦.

خلاصٌ لمن ظنّ أنّه يخدم المسيح ولم يخدم أخاه.

٧". ثمّ نذكر أقوال القديس يوحنّا عن **المقاربة بين محبّة الله ومحبّة الإنسان**. قال :

«إنْ قال أحدٌ: "إنّي أحِبُّ اللّه"، وهو يُبغض أخاه، كان كذّاباً. فمَن لا يُحِبُّ أخاه الذي يراه، لا يَسَعُهُ أنْ يحبَّ اللّهَ الذي لا يراه»[١٢].

وقال : «مَن يقولُ إنّه في النّور، وهو يُبغض أخاه، فهو حتّى الآنَ في الظلمة... وفي الظلمة يسير، ولا يدري إلى أينَ يمضي»[١٣].

وقال : «هذه هي البُشرى: أن يُحبَّ بعضُنا بعضاً.. مَن لا يُحبُّ يمكُثُ في الموت. كلّ مَن يُبغض أخاه يكون قاتلاً. وكلُّ قاتلٍ لا حياة أبديّةً له»[١٤].

وقال : «... فلنُحبّ بعضُنا بعضاً، لأنّ المحبّةَ من اللّه. وكلُّ مَن يحبّ هو مولودٌ من اللّه، ويعرف اللّه. ومَن لا يحبّ

---

(١٢) ١ يو ٤/ ٢٠.

(١٣)١ يو ٢/ ٩-١١.

(١٤) ١ يو ٣/ ١١-١٦.

ما عرفَ اللّه، لأنّ اللّهَ محبّة... ومَن يثبُتُ في المحبّة يَثْبُتُ في اللّه، واللّهُ يثبتُ فيه... نحنُ نُحبُّ، لأنّه هو أحبّنا **أوّلاً**»[١٥].

***

رسالة المسيحيّة واضحة، عبّر عنها يوحنّا الإنجيليّ بكلِّ صراحة : «مَن لا يُحِبُّ أخاه الذي يراه، لا يَسَعُه أنْ يُحِبَّ اللّهَ الذي لا يراه»[١٦]، و«كلُّ مَن يُبغض أخاه يكون قاتلاً. وكلُّ قاتلٍ لا حياةَ أبديّةً له»[١٧].

هذه الرسالة ليست من عند يوحنّا. إنّها تستند إلى مفهوم التجسّد الذي هو أساس الإيمان المسيحيّ. هذا التجسّد كان من أجل الإنسان، أيِّ إنسان؛ لأنّ الإنسانَ قيمةٌ في حدّ ذاته؛ وحرّيّتَه وكرامتَه أيضاً قيمتان يجب ألاّ يمسّهما ناموسٌ مُنزَل، أو نَبيٌّ مرسَل، أو ملاكٌ مكلَّف، أو دِينٌ موحًى، أو عقيدةٌ مقدّسة، أو شريعةٌ أزليّة ثابتة...

ألإنسَانُ، في المسيحيّة، هو الواسطة إلى اللّه. إنّه وجه اللّه. وقد لا يُرى اللّهُ ولا يُعرَفُ ولا يُحَبُّ إلاّ في وجهِ إنسان،

---

(١٥) ١يو ٤/٧-٢١.

(١٦) ١ يو ٤/٢٠.

(١٧) ١يو ٣/١٥.

حـيث يتـجلّى فيـه أكـثر ممّـا يتجلّى فــي دينٍ، أو كتــابٍ، أو شـريعــةٍ، أو نبيٍّ.. فلكأنّ الدليلَ على اللّه، والواسطةَ إلـيه، هو الإنسـان، لا الديــن، ولا الكتاب، ولا الشـريعــة، ولا أيُّ نَبيٍّ من الأنبياء.

هذا الكلام يعني أنّ على المسيحـيّين أن يقبلوا الآخرين كمــا هم، ومن حيث هم، وفي أيِّ دينٍ أو معتــقدٍ هـم، ومن أيِّ عِرقٍ أو انتماءٍ هـم.

يرتكب المسيحيّون إثمــاً عظيماً إنْ ظنّوا أنّهم سيُدانون على غير الحبّ الذي بذلوه في سبـيل إخوتهم البشـر، وبنوع خاصّ، الضعفاء والمحتاجين. فهؤلاء والمسيح سواء(١٨).

نريد أن نقــول : إنْ كـان المســيحــيّـون لا يزالون يرفــضــون المسلمين، أو أيِّ إنســانٍ آخَــر، فهم لــيســوا بعــدُ مســيحيّين. لا المسيح هو ربّهم، ولا المســيحيّة تخـصّـهم، ولا هم يَعرفون من ألِفباء الإنجيل حرفاً واحداً.

في إيمان المسيـحيّين أنّ يسوعَ المسيح حمـل صليبَه، ويحـملُه، وهو عليـه في نزاعٍ مســتـمرٍّ من أجل خــلاص كلّ

---

(١٨) إقــرأ متى ٢٥ / ٣١-٤٦، حــيث يساوي يســوع نفـسَه بالضــعفــاء، والمرضـى، والمساكين، والمسجونين، والغرباء، والجياع، والعطاش...

إنسان؛ ومن أجل أن يبقى الإنسان حرًّا، حرًّا، حرًّا: حرّاً من اللّهِ نفسه، ومن الكتب المنزلة، ومن الشرائع الثابتة، ومن العقائد الجامدة.

فهل يحقّ للمسيحيّين، بعد هذا، أن يسلبوا إنساناً حرّيّتَه؟! وإذا كان اللّهُ شاء أن يكون مسلمون، أبوسعنا نحن أن نشاء غيرَ ما شاءَ اللّه؟! بغير هذا يكون المسيح حملَ صليبَه سُدىً، ومات باطلاً.

خطرُ المسيحيّة في أن تحاصِرَ المسيح، فتظنّ أنّه جاء من أجلها فحسب. وخطيئتها أن تفصل نفسها عن العالم، بدل أن تُصبح هي العالم.

إنّ المسيحيّة في لبنان، وفي العالم أيضاً، ويا للأسف، لم تصل بعد، مع المسلمين، إلى هذا المستوى. والأسباب أربعة :

الأوّل : رفضُ المسلمين معرفةَ المسيح معرفةً حقيقيّة، كما هي في الإنجيل وتعاليم الكنيسة والآباء؛ ورجوعهم في معرفةِ المسيح والمسيحيّة إلى القرآن والأحاديث النبويّة والمصادر الإسلاميّة. وهذه، بالتأكيد، ليستْ مرجعاً علميًا أو تاريخيًا للمسيحيّة.

ألثاني : يتحمّل المسؤولون في كنيسة لبنان، وفي هذا الشرق أيضاً، مسؤوليّةَ جهلِ المسلمين الإيمانَ المسيحيّ ورفضِهم له. فهم، حتّى الآن، لم يُقدِّموا للمسلمين ما يجب أن يعرفوه عن المسيحيّة.

ألثالث : تصرّفُ بعضِ المسيحيّين مع المسلمين تصرُّفٌ غيرُ مسيحيّ. فسيرةُ الكثيرين منهم مشكِّكة، وأخلاقهم غير أخلاق المسيح، وروحانيّتهم بعيدة عن الإنجيل، وانتماؤهم إلى الكنيسة انتماءٌ سوسيولوجي، ومحبّتهم للآخرين مصلحة...

ألرّابع : إنغلاقُ المسلمين على المسيحيّين، وتصنيفُهم الناسَ، عامّةً، وبغير حقٍّ، إلى مؤمنين وكافرين وملحدين ومشركين وأهل ذمّة...؛ وتقسيمهم العالم، أيضاً، إلى دارَين: دار إسلام ودار حرب. والدار الثالثة، دار المعاهدة، موقّتة.

هذه الدار الموقّتة أقلقتِ العالمَ بجعجعتها بـ «الحوار الإسلامي-المسيحي». هذا «الحوار» لا يُنادَى به في دار الإسلام ولا في دار الحرب. إنّه، في الحقيقة، لا يعني شيئاً مهمّاً. وهو لم يُقدِّمْ نحو التفاهم والتقارب خطوةً واحدة؛ ولم يُظهر، عند القائلين به، أيَّ التزامٍ أو إيمانٍ صريحٍ واضح.

بالنسبة إلى المسيحيّين، أكان حوارٌ أم لم يكن، فهم ملزمون بمحبّة الآخرين كما هم؛ تحت خطر ألاّ يكونوا مسيحيّين.

وبالنسبة إلى المسلمين، إنّ الحوارَ، فضيلةَ دار المعاهدة الموقّتة؛ فهو، بالتالي، موقّت؛ أي هو يصبح بلا معنىً، عندما يصبح الجميعُ في دار الإسلام؛ أي عندما يُصبح الإسلامُ كلاًّ في الكلّ، ومهيمناً على الكلّ. ويُصبح أيضاً بلا فائدة، عندما تكون الحرب قائمة في دار الحرب.

والقائلون بـ" الحوار الإسلامي-المسيحي "، على الطريقة اللّبنانيّة، والمناضلون في سبيله، عليهم، والحال هذه، أن يستبدلوا عنوانَهم وهويّتهم، ويعملوا، بدل " الحوار الديني "، لـ" حوارٍ وطني "، يشترك فيه كلّ مواطنٍ، مسلماً كان أم غير مسلم، مؤمناً كان أم كافراً.

وتكون موضوعاتُ هذا الحوار على " حقوق الإنسان "، ومتطلّبات المواطنيّة الحقّة، وعلى كلّ ما يؤول إلى خير البشر وسعادتهم، في حاجاتهم، وأمراضهم، وعجزهم، وقهرهم، وجهلهم، وبطالتهم... وعلى كلّ ما يُسعد الإنسانَ، ويرقّيه، ويخلّصه، ليبني ملكوتَ اللّه على هذه الأرض.

على "حقوق الإنسان" يقوم الحوار الحقيقي، لا على "حقوق اللّه"، ولا على مستلزمات السماء، ولا على الدفاع عن العقيدة، والجهاد في سبيل الدين، وتصنيف الناس إلى مؤمنين وكافرين.

وأخيراً، إنّ موقف المسيحيّين من المسلمين هذا، لا يستمدّونه، من مفهومهم النبيل للإنسان فحسب؛ بل من حقيقة مسيحيّتهم التي تقوم، أوّلاً وآخِراً، على إيمانهم بالتجسّد الذي فيه «تخلّى» اللّهُ عن ذاته من أجل الإنسان.

وهل يكون المسيحيّون مسيحيّين حقًّا إنْ لم يكونوا «تَجَسُّدِيّين»؟ وهل بوسْعِ المسلمين أنْ يعملوا للّه إنْ لم يكونوا هم أيضاً «تَجسّديّين»؟!

هذا بالإضافة إلى أنّ المسيحيّة، تتميّز في ما تتميّز به عن الإسلام، بكونها تعتقد بأنّ يسوع جاء، في ما جاء من أجله، ليحرِّرَ الإنسانَ من اللّه نفسِه، ومن الشرائع المنزلة باسمه، تماماً كما جاء ليخلّصَ اللّهَ من الإنسان الذي نصّب نفسَه مدافعاً عنه، وعن ما يظنّه من وحي اللّه ومشيئته، وعن كلّ محاولة في تصنيف البشر بالنسبة إلى اللّه، وعن كلّ نيّة في حمل السيف في سبيله والجهاد من أجله.

إنّ الذين حكموا على يسوع بالقتل، حكموا عليه بسبب ذلك. وقد تُختَصر مهمّة يسوع الخلاصيّة هذه في كونه جاءَ من أجل تحرير الإنسان وخلاصه، لا من أجل الدفاع عن اللّه وتثبيت حكمه.

والمجال الذي لا حوار فيه بين الإسلام والمسيحيّة هو هذا: الإنسانُ أوّلاً لا اللّه. فمن أجل الإنسان صُلّب يسوع ومات، لا من أجل اللّه.

ألفصل الثاني

نظرة مسيحيّة إلى الإسلام

معنى كلمة «إسلام» ومشتّقاتها في القرآن غير معناها الذي أصبح لها في ما بعد القرآن وفي التاريخ الإسلامي اللاّحق. والمعنى القرآني أوّل، وهو المقبول؛ فيما المعنى اللاّحق فيه نظر.

"**ألإسلام**" ، **في القرآن**، يعني دينَ النّبيّين السابقين، ودينَ أولئك الذين اتّبعوا محمّداً من دون أن يفرّقوا بين نبيّ ونبيّ، أو بين كتاب وكتاب. إنّه دين الذين وحّدوا اللّه، ورفضوا الشرك. والمسلمون الحقيقيّون هم الذين لا يزالون على إيمان مَن أسماهم القرآن "أهل كتاب" ، قبلَ أن يتفرّقوا شيَعاً وفِرَقاً وأحزاباً. قال: "قلْ: يا أهلَ الكتاب! لستُمْ على شيءٍ حتّى تُقيموا التوراةَ والإنجيلَ وما أُنزِلَ إليكم من ربِّكم" (سورة المائدة ٥/٦٨) :

فـالنّبي **نوح**، أوّلُ رسـول بعـثـه اللّه إلى أهل الأرض، قال: "أُمِرتُ أن أكونَ **من المسلمين**" (س. يونس ١٠ / ٧١).

وإبراهيم، "ما كانَ إبراهيمُ يهوديّاً، ولا نَصرانيّاً. ولكن كانَ حنيفاً **مُسْلِماً**. وما كان من المشرِكين" (س. آل عمران ٣ / ٦٧). وقـال في إبراهيم أيضـاً: «إذ قـال له ربُّه: **أسلمْ**. قـال: **أسلمتُ** لربّ العالمين» (س. البقرة ٢ / ١٣١).

وإبراهيم وابنُه **إسماعيل** يصلّيان إلى اللّه أن يجعلهما وذرّيَّتَهما مسلمين: "ربَّنا! تقبّلْ منّا. إنّكَ السميعُ العليم. ربّنا! واجعلنا **مسلمَين** لكَ. ومن ذرّيتنا أُمَّةً **مُسلمَةً** لكَ"[1]. وعنهما قال القـرآنُ أيضـاً: «فلـمّا **أسْلما** وَتَلَّهُ للجـبين (أي صرعـه عليه)» (س. الصافات ٣٧/ ١٠٣).

(وقرى **قوم لوط**)، "مـا وجَدْنا فـيهـا غيـرَ بيتٍ من **المسْلِمين**" (هو بيت لوط وابنتَيه) (س. الذاريات ٥١ / ٣٦).

ويعقوب أيضاً يوصي بنيه قُبيل موته قائلاً: "يا بَنيَّ! إنّ اللّه اصطفى لكم الدّينَ. فلا تموتُنَّ إلاّ وأنتم **مسلِمون**"[2].

---

(١) سورة البقرة ٢/ ١٢٧–١٢٨.

(٢) سورة البقرة ٢/ ١٣٢.

وبنو يعقوب كانوا لأبيهم أوفياء فاستجابوا وصيّتَه، وقالوا: " نعبُدُ إلهَكَ وإلهَ آبائكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحقَ إلهاً واحداً. ونحن له **مسلمون**" (س. البقرة ٢/١٣٣).

ويوسف الصدّيق يصلّي إلى ربّه قائلاً: "ربِّ!.. أنتَ وليّي في الدنيا والآخرة. تَوَفَّني **مسلماً**، وألحِقْني بالصالحين" (س. يوسف ١٢/١٠١).

وموسى أيضاً يقول لشعبه: "إنْ كنتم آمنتم باللّه فعليه توكّلوا إنْ كنتم **مسلمين**" (س. يونس ١٠/ ٨٤).

وكذلك **فرعون،** الذي حاول أن يتوب إلى اللّه قبل أن يدركَه الغرَق، قال: "لا إلهَ إلاّ الذي آمنتْ به بنو إسرائيل. **وأنا من المسلِمين**" (س. يونس ١٠/ ٩٠).

والسَّحَرة اعترفوا أمام فرعون: "... ربَّنا أفْرِغْ علينا صبراً. وتَوَفَّنا **مُسلِمين**" (س. الأعراف ٧/١٢٦).

وكذلك **الجِنّ** منهم مسلمون ومنهم جائرون. قال: «وأنّا مِنّا المُسْلِمونَ، ومِنّا القاسِطونَ[٣]. فمَنْ أسْلَمَ فأولئكَ تَحَرَّوا رَشَداً[٤]. وأمّا القاسِطونَ فكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً[٥].

---

(٣) **القاسط** وهو الجائر عن الحقّ، بخلاف المُقسط فإنّه العادل.

(٤) أي: قصدوا طريق الحقّ وتوخّوه. أو طلبوا لأنفسهم النّجاة.

وقال **سليمان:** " وأوتينا العلمَ من قبلِها (أي قبل بلقيس ملكة اليـــمن) وكنّا **مــسلمين** " (س. النمل ٢٧/ ٤٢)؛ وقـــال أيضـــاً: "إنّه مِن سُليمـــانَ وإنّه بسم اللّه الرحمن الرحــيم، ألاّ تَعلُوا عليَّ وأْتُوني **مُــسْلِمِين**" (٢٧/ ٣٠-٣١)؛ وقال أيـضاً: " يا أيّهـــا الملأ! أيُّكم يأْتـــيني بعـــرشِـــهـــا قـــبـلَ أنْ يأتوني **مُسْلِمِينَ**" (٢٧/ ٣٨).

و**بلقـيس** ملكة اليـــمن، التي آمنت بسليـــمـــان، أعلنت إسلامَـــها فـــقالت: " ربِّ! إنّي... **أسْلمتُ** مع سليـمان للّهِ ربِّ العالَمين " (٢٧/ ٤٤).

و **أنبيــاء بني إسرائيل** الذين أسلموا يحكمــون على ما نزل في التــوراة. قال: "إنّا أنزَلْنــا التوراةَ فــيهــا هدى ونورٌ. يحكم بها النبــيّونَ الّذينَ **أسلموا** للذين هادوا... " (س. المائدة ٥/ ٤٤).

وقال عن **حواريّي عــيسى**، الذين شهّدوا عــيسى على إسلامهم: " فلمّا أحسّ عيــسى منهم الكُفرَ، قال: مَن أنصاري إلى اللّه؟ قال الحواريّون: نحن أنصــارُ اللّه. آمَنّا باللّه. واشـهدْ

---

(٥) **القاسطون**، ألجائرون عن طريق الحقّ، هم لجهنّم وقود: ٢/ ٢٤.

(يا عيسى) بأنّا **مسلمون** " (س. آل عمران ٣/ ٥٢). وفي المعنى نفسه، قال: " وإذْ أوحيتُ إلى الحواريّين أنْ آمنوا بي وبرسولي (عيسى). قالوا: آمَنّا. واشهدْ (يا عيسى) بأنّنا **مسلمون** " (س. المائدة ٥/ ١١١).

ويبدو أنّ **"أهلَ الكتاب" كلَّهم**، بحسب ما جاء في القرآن، يهوداً كانوا أم نصارى، كانوا مسلمين. قال: " قلْ يا أهلَ الكتاب! تعالَوا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيننا وبينَكم: ألاّ نعبُدَ إلاّ اللّهَ. ولا نُشرِكَ به شيئاً. ولا يتّخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون اللّه. فإنْ تَوَلَّوا فقولوا: إشْهدوا بأنّا **مسلمون** " (س. آل عمران ٣/ ٦٤).

وقال أيضاً عن أهل الكتاب الذين " قالوا: لن يَدخُلَ الجنّةَ إلاّ مَن كان هوداً -أو نصارى-. تلك أمانيُّهم... بلى مَن **أسلَمَ** وجهَهُ للّهِ وهو محسنٌ فله أجره عند ربّه... "[٦]؛

وأيضاً : " ومَن أحسنَ ديناً ممّن **أسْلم** وجهُه للّه وهو محسنٌ، واتّبعَ ملّةَ إبراهيمَ حنيفاً، واتّخذ اللّهُ إبراهيمَ خليلاً " (س. النساء ٤/ ١٢٥)؛

---

(٦) سورة البقرة ٢/ ١١١-١١٢.

وأيضاً : "ومَن **يُسْلِمْ وجهَه** إلى اللّه وهو محـسن فقد استـمسك بالعـروة الوُثقى. وإلى اللّه عـاقبـةُ الأمور" (س. لقمان ٣١/٢٢)؛

وأيضـاً: "ومَن أحسنُ قـولاً ممّن دعا إلى اللّهِ وعَـمِلَ صالحاً، وقال إنّني من **المسلمين** " (س. فصّلت ٤١/٣٣)؛

وأيضـاً: "ولا يأمـركم أن تتّـخـذوا الملائكةَ والنّبـيّينَ أرباباً. أيأمركم بالكفر بعدَ إذْ أنتم **مسلمون**؟ " (٧) .

***

فعلى مثال نوح، وإبراهيم، وإسـماعيل ابنِه، ويعقوب، وبنيـه الأسبـاط الإثنَي عـشر، ويوسف الـصدّيق، والنّبـيّين موسى وسليمان، وملكة اليمن بلقـيس، وفرعون والسحرة، والجِنّ، والحـواريّين رسل عيـسى الإثنَي عـشـر، والأنبيـاء جمـيعهم، وأهل الكتـاب كافّةً، يـهودٍ ونصارى، في مـختلف شيـعهم وأحزابهم... يتـحتّم على أتباع مـحمّد أن يتصـرّفوا فينضـمّوا إليـهم، ويكونوا مثلهم، ويـقولوا قولَهم، بـحسب دعوة القرآن المتواترة لهم:

---

(٧) سورة آل عمران ٣/ ٨٠.

" قـــولوا: آمنّا باللّـــه، ومــا أُنزِلَ إلــينا، ومـــا أُنزِلَ إلى إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى، وعـيسى، وما أوتي النّبـيّون من ربّهم. **لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ منهم. وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون** " (س. البقرة ٢ / ١٣٦).

ويدعـوهم أيضـاً إلى أن يؤمنوا باللّه، وبكتـبـه، وبألاّ يُفَـرِّقوا بين أحـدٍ من النّبيّين. وبـذلك يكونون مسلمين. قـال: " قل: آمنّا بـاللّه، ومـــا أنزلَ علينا، ومـــا أُنزلَ علـى إبراهيم وإسمــاعيل وإسحق ويعـقوب والأسباط، ومـا أوتي موسى وعيسى والنّبيّون من ربّهم. **لا نُفَرِّقُ بَينَ أحَدٍ منهم. ونحنُ له مُسلِمون** " (س. آل عمران ٣ / ٨٤).

ويدعو النبيُّ محـمّد أتباعَه بألاّ يتفرّقوا كـما تفرّق بنو إسرائيل. ولا يتبعوا أيّ فريق منهم. بل ليتّقوا اللّه. ولا يموتُنّ إلاّ على الإســلام. قـال: " يا أيّهـا الذين آمنوا! إتّقُـوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ. ولا تموتُنَّ إلاّ وأنتم **مسلمون**... " (٣/ ١٠٠-١٠٤).

أمّا الأنبياء العرب الذين يتكلّم عليهم القرآن، مثل: **هُود**، نبيّ عـــاد: ٧ مـرّات[٨]، **وصَـالح**، نبيّ ثمـــود: ١١ مـرّة[٩]،

---

(٨) في: **٧**/ ٦٥؛ **١١**/ ٥٠ و٥٣ و٥٨ و٦٠ و٨٩؛ **٢٦**/ ١٢٤.

وشُعَيب، نبيّ مدين: ١١ مرّة أيضاً[١٠]، فلم يشر القرآن إليهم بأيّة إشارة إلى أنّهم "مسلمين". وهذا أيضاً دليلٌ آخر على أنّ "الإسلام" هو دين أهل الكتاب من يهود ونصارى.

***

وثمّة أيضاً آيات أخرى، حيث ترد كلمة "**إسلام**" ومشتقّاتها، تدلُّ على أنّ المسلمين الحقيقيّين هم الذين يؤمنون بإلهٍ واحد، ويأخذون بتعاليم التوراة والإنجيل والقرآن، ويؤمنون برسالة النبيّين السابقين جميعهم، ولا يفرّقون بينهم.

والمسلمون، في تعريف القرآن، هم الذين "يوحّدون" و"لا يفرّقون"، وهم الذين "يُقيمون الكتابَ كلّه" ولا يُميّزون، وهم الذين يؤالفون بين الشيع والأحزاب ولا يتحزّبون. من هذه الآيات:

---

(٩) في: **٧**/ ٧٣ و٧٥ و٧٧ و١٨٩ و١٩٠؛ **١١**/ ٦١ و٦٢ و٦٦ و٨٩؛ **٢٦**/ ١٤٢؛ **٢٧**/ ٤٥.

(١٠) في: **٧**/ ٨٥ و٨٨ و٩٠ و٩٢ (مرّتين)؛ **١١**/ ٨٤ و٨٧ و٩١ و٩٤؛ **٢٦**/ ١٧٧؛ **٢٩**/ ٣٦.

قال أهلُ الكتاب : "إنّا كنّا من قبْله (أي من قبْل القرآن) **مسلمِين**" (س. القصص ٢٨/٥٢).

وجاء في القرآن : "هـو سَمّاكم **المسلمين** من قبل وفي هذا (القرآن) " (س. الحج ٢٢/٧٨).

وقال اللّه لمحمّد : "ومـا أرسلناكَ إلاّ رحمةً للعالمين. قل: إنّما يُوحَى إليّ إنّما إلـهكم إله واحد. فهل أنتم **مسلمون**؟ "[١١].

وقال محمّد لأتباعه: "ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلاّ بالتي هي أحـسنُ إلاّ الذين ظلمـوا منهم. وقـولوا: آمنّا بالذي أُنْزِلَ إلينا وأُنْزِلَ إليكم وإلـهُنا وإلـهُكم واحـد. ونحن له **مسـلمون** " (س. العنكبوت ٢٩/٤٦).

وقال اللّه لمحمّد : «ومـا أرسلناكَ إلاّ رحمةً للعالمين. قل: إنّما يُوحَى إليّ إنّما إلـهكم إله واحد. فهل أنتم **مسلمون**؟»[١٢].

وفي النتيجة، إنّ اللّهَ " شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحـاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيكَ، وَمَـا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُـوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّيْنَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ" (الشورى ٤٢/١٣).

---

(١١) سورة الأنبياء ٢١/١٠٧-١٠٨.

(١٢) سورة النمل ٢٧/٩١-٩٢.

وثمّــة آيات أخرى أيضــاً تدلّ على أســبقــيّة الإســلام البيبليّ على الإسلام العربي. وهي تشــير إلى أنّ النّبيّ محمّد نفسَه أعلنَ انضمامَه إليه، ودعا إلى إقامةِ أحكامه، والالتحاقِ بأتباعه. وهو، على ما يبدو، أمـــرٌ إلهيّ (؟).

قــال : " وأُمِــرْتُ (؟) أنْ أكــونَ منَ **المسْلمين**، وأنْ أتلوَ القرآنَ "[١٣]. وقال : "أُمِرتُ (؟) أن **أُسلِمَ** لربِّ العالَمينَ "[١٤].

ثم اشتدّ عليــه الأمر (؟)، ودعا (؟)هُ إلى أن يكون رأسَ المسلمين، وإمــامَهم، والمســؤولَ عنهم، وســيّدَهم، وقــائدَهم، ووليَّ أمــرِهم، وبكلمة: أوّلَهم. قــال: " وأُمِرتُ (؟) لأنْ أكــونَ **أوّلَ المسلمين**" (س. الزمر ٣٩/١٧).

وقال أيضاً : " وإنّي أُمِرتُ (؟) أن أكونَ **أوّلَ مَن أسلمَ** " (س. الأنعــام ٦/ ١٤). وقال أيضــاً : " وبذلك **أُمِرْتُ** (؟) **وأنا أوّلُ المسلمين**" (٦/١٦٣).

هذه **الأولويّة**، كمــا هو واضح، ليست **أوّليّة** زمنيّة، بل هي أولويّة في المقــام والمسؤوليّــة. ويُستــبعد جــدّاً أن تكون

(١٣) سورة النّمل ٢٧/ ٩١-٩٢.

(١٤) سورة غافر ٤٠/٦٦.

أوّليّة زمنيّة بعدما أثبت القرآنُ نفسُه أسبقيّةَ الإسلام البيبلي على الإسلام العربي؛ وأسبقيّة إسلام النبيّين وأهلِ الكتاب كافّةً على إسلام محمّد وأتباعه.

وهذا **الأمر**، المتواتر على محمّد، هل هو من اللّه مباشرة؟ أم من شخصٍ آخر يتكلّم باسم اللّه؟! يبدو أنّ القسّ وَرقة بن نَوفل، ابن عمّ السيّدة خديجة، زوج النبيّ، وأقرب المقرّبين إلى محمّد، وخبير بمعرفة ناموس موسى وعيسى، وعاش مع محمّد أكثر من خمسٍ وأربعين سنة، وتولّى تزويجَه، ودرّبه على قراءة الكتب وعبادة اللّه، وقد تنبّأ مراراً على ما سيكون عليه محمّد... هو الذي قام بـ **الأمر**، أمرِ التبليغ والإنذار(١٥).

لهذا، ليس للمسلمين اليوم حجّةٌ في أن يضيّعوا على الإسلام الحقيقي زمناً سابقاً على الزمن الذي حدّدوا فيه نشأته. وليس لهم أن يدّعوا الإسلام كأنّه أعطي لهم من دون سواهم. وليس لهم أخيراً أن يكونوا على غير ما كان عليه محمّد وصحبُه.

---

(١٥) رَ: كتاب قسّ ونبيّ، ففيه بحث وافٍ عن دور القسّ ورقة.

هذا **الإسلام السابق**، أي دين هو؟

إذا تفحّصنا جيّداً تعاليمَ الإسلامِ وتعاليمَ النصرانيّة التي كانت تعيش في الجزيرة العربيّة آنذاك، نجدها تعاليم واحدة مشتركة.

ألإسلام المكّي لا يختلف عن النّصرانيّة العربيّة في شيء، بل هو هذه النّصرانيّة عينها : يعتقد معتقدَها، يُقيم كتبَها، يدعو دعوتَها، يتْبع أنبياءَها، يؤمن إيمانَها، يرفع شعارَها، يسير بموجب شريعتها، يمارس فروضَها، واحداً فواحداً[١٦].

والأجدر القول: إنّ النصرانيّة والإسلام دين واحد باختلاف الإسم. أو قل: إنّ الإسلامَ المكّي هو الاسمُ العربيّ للنصرانيّة المكّية.

هذا الإسلام–النصراني هو الدّين الذي ارتضاه اللّه لعباده : " .. أليومَ أكملتُ لكم دينَكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورضيتُ لكم **الإسلامَ** ديناً "[١٧].

---

(١٦) يُراجع كتاب **قسّ ونبيّ** في ذلك، والقسم الثاني من هذا البحث.
(١٧) سورة المائدة ٥/ ٣.

ولا دين عند اللّه مقبول سواه: "مَن يبتغِ غيرَ **الإسلام** ديناً فلن يُقبَلَ منه"[١٨]، و"إنّ الدّينَ عند اللّه **الإسلام**"[١٩]، و"من يُرِدِ اللّهُ أن يهديَه يشرحْ صدرَه **للإسلام**"[٢٠]، وهو نعمةٌ من اللّه يُمَنّ عليها: "لا تَمَنّوا عليّ **إسلامكم**، بل اللّهُ يَمَنُّ عليكم"[٢١]؛ لأنّه جعلَ محمّداً وأتباعَه عليه، كالنصارى أنفسهم.

هذه الآيات وغيرها، حيث ترد لفظة "**إسلام**"، تدلّ، مرّة أخرى، على أنّ الإسلام، في نظر القرآن، ليس ديناً مستقلاً عن دين أهل الكتاب؛ وأنّ الإسلام الحقيقي كان قبل الإسلام الذي يقول به المسلمون؛ وأنّ الوحي فيه ليس خاصّاً به، بل استمرارٌ للوحي السابق؛ وأنّ تعاليمه وعقيدَته وطقوسه هي نفسها تعاليم النّصرانيّة وعقيدتها وطقوسها.

***

---

(١٨) سورة آل عمران ٣/ ٨٥.

(١٩) سورة آل عمران ٣/ ١٩.

(٢٠) سورة الأنعام ٦/ ١٢٥.

(٢١) سورة الحجرات ٤٩/ ١٧.

أمّا **الإسلام اللاّحق**، أي الإسلام المدنيّ، وإسلام الفتوح فقد أصبح ديناً مستقلاً، إلى جانب اليهوديّة والمسيحيّة، ديناً له من اليهوديّة موقفاً معادياً؛ ومن النّصرانيّة موقفَ قَبول، ومن المسيحيّة موقف تكفير.

هذه الإستقلاليّة فرضتْ، في التاريخ الإسلامي اللاّحق، حالتَين: حالة صراع رقّم تاريخ العلاقات بين المسيحيّين والمسلمين إلى الأبد؛ وحالة "حوار ديني" كاذب، حاول فيه الطرفان تقريب وجهات النّظر المختلفة، من دون جدوى.

والحالتان ليستا من الإسلام الحقيقي في شيء. فالإسلام ليس ديناً مستقلاً عن "النصرانيّة" حتّى يتصارعا؛ ولا هو يهادن "المسيحيّة" حتّى يتحاورا.

بهذا المعنى، نقول إنّ للإسلام الحقيقي مع "النصرانيّة" نشأةً واحدة، ومعتقداتٍ مشتركة، وطقوساً متشابِهة، وتراثاً واحداً مشترَكاً... ونقول أيضاً إنّ الإسلام العربي نشأ في صراعٍ حادٍّ مع "المسيحيّة" التي تعرّف إليها مع وفد نجران وفتوح بلاد الشام والقتال السياسي والعسكري الذي أطاح بشعوبٍ وأديانٍ وحضارات.

والمسيحيّون اليوم لا يسعهم التبرّؤ من هذا التراث الواحد المشترك بينهم وبين المسلمين. ولا المسلمون يسعهم التنكّر لهذا التراث الواحد المشترك.

على هذا يتحتّم على المسلمين أن ينظروا إلى الإسلام الحقيقي نظرتهم إلى حركة روحيّة إجتماعيّة تصحيحيّة ثوريّة في مجتمع مكّة. وعلى المسيحيّين أن يتعاملوا مع هذه الحركة على أنّها جزء من تاريخهم وتراثهم الديني والاجتماعي.

***

بهذا الاعتبار يُصبح **الصراع** بين المسيحيّة والإسلام صراعاً سياسيّاً لا أكثر ولا أقلّ. وبالاعتبار أيّاه يصبح **الحوار** بين المسيحيّة والإسلام كحوار مَن يكلّم نفسَه...

وبالتالي، لا مكان بين النصرانيّة والإسلام، لا للصراع السياسي، ولا للحوار الديني، لأنّ النصرانيّة **تحتوي** الإسلام؛ والإسلام ليس إلاّ حركة روحيّة واجتماعيّة في قلب النصرانيّة العربيّة واستمرارٌ لها.

ونردّد، فنقول: إنّ كلّ ما في الإسلام ممّا لا يقبل به المسيحيّون اليوم، وكلّ ما في المسيحيّة ممّا لا يقبل به

المسلمون اليومَ أيضاً، يعود إلى تلك الشيع النّصرانيّة العربيّة التي كانت في أنحاء الجزيرة العربيّة، وإلى ذاك المجتمع الناشئ الذي أسّسه محمّد بموجب معطيات ذاك الزمان.

وإذا شاء أحدُنا أن يفهم حقيقة الأمور، عليه أن يعود إلى تلك البدايات، ويتخطّى " تنزيلات جبريل "، إلى تلك الأسباب التاريخيّة والاجتماعيّة والدّينيّة التي نشأ الإسلام في ظلّها. عند ذاك تبدأ مسيرةٌ جدّيّة، جديدةٌ، جديرةٌ بالبقاء.

والعودة إلى البدايات تعني الوقوف على ما في القرآن من التوراة والإنجيل. ولسنا الآن في صدد المقاربة بين القرآن والتوراة والأناجيل المنحولة، وفيه منها الكثير. غير أنّنا ننحصر في موضوع المقاربة بين القرآن والنصرانيّة، فهو مجال بحثنا الآن.

ألفصل الثالث

نظرة مسيحيّة إلى القرآن

ألقرآنُ قسمان : مكّي ومدني. و« الاختلاف بين المكّي والمدني، بحسب قول محمود محمّد طه، ليس اختلافَ مكانِ النزول، ولا اختلافَ زمنِ النزول، وإنّما هو اختلافُ مستوى المخاطَبِين»[1].

واختلاف أحوال المكّيّين عن المدنيّين، واشتداد يد قريش على محمّد في مكّة، ووضْع محمّد الجديد في يثرب...

(١) **الرسالة الثانية من الإسلام**، في كتاب **نحو مشروع مستقبلي للإسلام**. ثلاثة من الأعمال الأساسيّة للمفكّر الشهيد محمود محمّد طه، مؤسس حركة «الإخوان الجمهوريّين»، (ت ١٨ يناير ١٩٨٥)، ألمركز الثقافي العربي بيروت، ودار قرطاس الكويت، ٢٠٠٢؛ ص ١٥٠. أنظر أيضاً: مقدّمة كتاب **نحو تطوير التشريع الإسلامي**، لعبدالله أحمد النّعيم، ترجمة وتقديم حسين أحمد أمين، دار سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٤؛ ص ٢٤٨,٨٨ ص.

أدّى إلى خطابَين مـخـتلفَين في القـرآن. فكان قـرآنٌ نزل في مكّة، وهو مـا نسمّـيه القـرآن المكّي؛ وقـرآن نزل في المدينة، وهو القرآن المدني. والواحد يخـتلف عن الآخر في الأسلوب، والتشريع، والنظر إلى مـختلف الأمور الدينيّة والاجتـماعيّة والإنسانيّة...

قرآن مكّة توجيهاتٌ روحيّة ودعوة إلى التسامح: «ادْعُ إلى سَبـيلِ ربِّكَ بالحِكْمـةِ والمَوعِظةِ الحَسَنَة. وجَـادِلْهُمْ بالتي هيَ أحسَـنُ. إنّ ربَّكَ هوَ أعلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبـيلِه. وهُوَ أعلمُ بالمُهتَدِينَ» (س. النحل ١٦/ ١٢٥).

قـرآن مكّة يدعـو إلى الإيمان بـاللّه الواحـد، وباليـوم الآخِر، والحـياة الثـانية، والجنّة والنـار، وعملِ الصـالحات؛ والحثّ على الممـارسات الدينيّة، من خـتان وصـوم وصلاة، وتحريم الخمرة ولحم الخنزير والذبائح المقدّمَة للأوثان...

كما يدعو، أيضاً، وبنوع خاصّ، إلى الاهتمام بالأرامل واليتامى، ومساعدة المحتاجين والمساكين وأبناء السبيل. حتّى إنّنا نجـد التـركيـز على ذمّ الأغنيـاء وآكلي أمـوال اليتـامى والأرامل، وتهـديدهم بالـنار، هو في الإنجـيل وفي القـرآن سواء.

جاء في القـرآن: إنّ هؤلاء "لا تُفَتَّحُ لهمْ أبوابُ السّـماء. ولا يَدخُلون الجنّةَ حتّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاط "[٢]؛

وجاء في إنجيل متّى: "إنّ وُلُـوجَ جَمَلٍ في سَمِّ الخِيَاطِ لأيْسَرُ منْ دُخولِ غنيٍّ ملكوتَ اللّه "[٣].

هذه التعـاليم المكّيّة «الرحيمـة» هي مضمون أكـثر من ثلثَي القـرآن، وهي "الأصل"؛ فـيمـا التـعـاليـم المدنيّـة «التشريعيّة» هي "الفرع". والمسلمون اليوم يعملون بموجب "الفرع" الذي "نَسَخَ"[٤] "الأصل".

أمّا **قرآن المدينة** فلنا إليه نظرتان مختلفتان:

نظرة قَبول، ولكن، قـبولٌ في وقته وبيـئته ومجتـمعه وبحسب القِيَم التي كانتْ سائدةً آنذاك؛

ونظرة رفض، أي رفض لاستـمراريّة مـا كان مقـبولاً في حينه.

---

(٢) سورة الأعراف ٧/ ٤٠-٤٢.

(٣) متى١٩/ ٢٤؛ مر ١٠/ ٢٣-٢٥؛ لو ١٨/ ٢٣-٢٥.

(٤) "الناسخ والمنسوخ" عِلمٌ يقـوم على أنّ في القرآن آيات أُلغيتْ أحكامـها بآياتٍ أخرى؛ وذلك لمقتضى الحال وتبدّل الظروف. والناسخة هي الآيات المدنيّة فيما المنسوخة هي الايات المكّيّة.

فشريعة القرآن المدني لا تزال معمولاً بها حتّى اليوم، بالرّغم من تبدّلِ كلِّ شيء. وهو مخالف لمفهوم الدين.

يقول معظم المسلمين باستمراريّة شريعة القرآن المدني، لأنّها، في رأيهم، هي التي جاءت متأخِّرةً، وبالتالي مكمِّلةً لما كان في مكّة. لهذا فهي «تنسخ» ما قبلها ليأتي اللّه بخيرٍ منها : «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ، أو نُنْسِها، نَأْتِ بِخَيرٍ مِنْهَا، أو مِثْلِهَا. أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (البقرة ٢/١٠٦)

غير أنّ مسلمين آخرين قالوا بأنّ «قرآن مكّة هو الأصل، وقرآنَ المدينة هو الفرع. والفرعُ، في نظرهم، تطبيق موقّت للأصل. ومتى يحين الحين يجب العودة إلى الأصل... وقالوا أيضاً بأنّ الجوانب المعلّقة من الرسالة المكيّة... أُجِّلَ تنفيذُها إلى حين توافر الظروف المناسبة في المستقبل »[٥].

لهذا كان «النسخ»، أي نسخ الآيات المدنيّة لأحكام الآيات المكّيّة. «والسؤال الذي ينجم عن هذا هو ما إذا كان النسخُ دائمَ المفعول بحيث تبقى النصوص المكّيّة الأقدم غيرَ معمولٍ بها إلى الأبد»؟

---

(٥) مقدّمة كتاب " تطوير التشريع الإسلامي " ، ص ٧–٨.

هذا يعني أنّ قَبولَ النسخِ قبولاً مؤبّداً هو «حرمان المسلمين من أفضل جوانبِ دينهم». والنسخ كان في جوهره عمليّةً منطقيّة وضروريّة لتطبيق النصوص المناسبة وتأجيل العمل بغيرها حتّى تنشأ ظروف مواتية لتطبيق تلك النصوص المؤجّلة»[٦].

«يعني هذا أنّ النصوص المكّيّة أرقى مضموناً من النصوص المدنيّة، وبالتالي، فإنّ النموذج المدني للعلاقات بين الطوائف والعلاقات الدوليّة هو الذي كان إنتقالياً وتكتيكيّاً لا النموذج المكّي»[٧].

ويعني أيضاً «إنّ المصادر الإلهيّة (أي القرآن والسنّة) لم ولن تجد سبيلها إلى التطبيق العملي في سلوك المسلمين وإدارة أمورهم إلاّ عن طريق الفهم البشري. فاللّه، سبحانه وتعالى، لا يشرّع لكماله هو، وإنّما لقصور البشر...

«هذه الحقيقة الظاهرة تقودنا إلى القول بأنّ الوحي لا يمكن أن يصبح تشريعاً تطبيقيّاً إلاّ عن طريق الفهم

---

(٦) المرجع السابق نفسه، ص ١٧.
(٧) المرجع السابق نفسه، ص ٢٠٢.

البشري... وتقود هذه البداهة إلى خلاصة لازمة وهي أنّ فهم المسلمين للمصادر الإلهيّة للتشريع الإسلامي لا بدّ أن يختلف باختلاف الزمان والمكان»[٨] .

ثمّ «إنّ هدف القرآن الرئيسي هو تنظيم علاقة الإنسان بخالقه، إلى علاقة الإنسان بأقرانه البشر. لهذا، فالقرآن، ليس بمجموعة قوانين، ولا حتّى بكتاب قانوني، ولا هو يصف نفسه بذلك»[٩].

وهذا يقود إلى القول الجازم بأنّ الإسلامَ، في جوهره، دين، لا سياسة؛ كما قال المستشار محمّد سعيد العشماوي : «أرادَ اللّهُ للإسلامِ أن يكونَ ديناً، وأراد به الناسُ أن يكون سياسة»[١٠].

ويكمّل حسين أمين، فكر محمود محمّد طه، فيقول: «وفيما يتعلّق بقضايا القانون العام.. يقترح الإستاذ محمود طه تطويرَ أسس القانون الإسلامي وتحويلَها من نصوص الفترة المدنيّة إلى الفترة المكّيّة السابقة عليها. ويعني هذا أنّ

---

(٨) المرجع السابق نفسه، ص ١٧.

(٩) المرجع السابق نفسه، ص ٤٨.

(١٠) العشماوي، **الإسلام السياسي**، دار سينا، القاهرة، ١٩٨٧؛ ص ٧.

المبدأ في التطوير لا يعدو أن يكون عكساً لعمليّة النسخ بحيث يصبح بالإمكان الآن تطبيق أحكام النصوص التي كانت منسوخة في الماضي، ونسخ النصوص التي كانت تطبّقها الشريعة»[١١].

في رأي الإستاذ محمود محمّد طه، إنّ الآيات التي نُسخت، "وَنَأْتِ بِمِثْلِهَا"، أي «نعيدها هي نفسها إلى الحكم حين يحين وقتها.. فكأنّ الآيات التي نُسختْ إنّما نُسختْ لحكم الوقت، فهي مرجَأة إلى أن يحين حينها. فإنْ حان حينُها فقد أصبحت هي صاحبة الوقت، ويكون لها الحكم، وتصبح بذلك هي الآية المحكمة، وتصير الآية التي كانت محكمة في القرن السابع منسوخة الآن.

«هذا هو معنى حكم الوقت: للقرن السابع آيات الفروع، وللقرن العشرين آيات الأصول. وهذه هي الحكمة وراء النسخ. فليس النسخُ إذن إلغاءًا تامًّا. وإنّما هو إرجاء يتحيّن الحين، ويتوقّت الوقت...

و«معنى تطوير التشريع. فإنّما هو انتقالٌ من نصّ

---

(١١) المرجع السابق نفسه، ص ٨٨–٨٩.

خدمَ غـرضَه، خـدمه حـتى استنفـده، إلى نصّ كان مـدّخراً يومئذٍ إلى أن يحين حينه. فالتطوّر إذن ليس قفزاً في الفضاء، ولا هو قـول بالـرأي الفجّ، وإنّمـا هو انتـقـال من نصٍّ إلى نصّ»(١٢).

«إنّ بعض مبـادئ الشريعـة (الإسلامـيّة) الصـريحة تتعـارض تعارضـاً واضحاً مـع المبادئ المقابلة فـي القانون الدولي... وتخلق قدراً من التوتّر قـد يكون له أثره الكبير في عدم استجابة المسلمين للمعايير الدوليّة..

«نستخلـص من أيّة مقارنة بين مبادئ جـوهر القانون الدولي المذكورة عالميّـة وبين مبادئ الشريعـة التي لا تعترف بالدول غير الإسـلامـيّة، وتقرّ استخدام القوّة ضـدّها، نتيجة حتـميّـة مؤدّاها أنّ ثمّـة تناقضـاً كبـيراً وخطيـراً بين هذين النظامين القانونيّين.

«فالشـريعة تناقض، بصـورة مباشـرة، ميـثاق الأمم المتّحدة، حـيث إنّه، في حين يحظّر الميثاق استـخدام القوّة في العـلاقـات الدوليّـة، إلاّ للدفـاع عن الـنفس، تقـرّ الشـريعـة

---

(١٢) ألمرجع السابق نفسه، ص ٩٢-٩٣.

إستخدامَ القوّة لنشر الإسلام، أو الدفاع عن مبادئ الإسلام في دولة إسلاميّة أخرى.

«كذلك، فإنّ تمسّك الشريعة بفكرة وجود حالة حرب دائمة مع الدول غير الإسلاميّة وعدم الاعتراف بها، يعني رفض أساس القانون الدولي الحديث كلّه.

«وقد تحدّث الفقهاء المسلمون الأوَل الذين تعرّضوا للموضوع عن حالة حرب دائمة بين المسلمين وغير المسلمين يجوز وقفها موقّتاً بإبرام إتفاقيّة صلح أو عهد، ودون أن يعني ذلك الاعتراف الكامل، أو الصلح الدائم اللذين يتطلّبهما القانون الدولي»[١٣]...

«والسبيل الوحيد إلى تحقيق القدر الضروري للإصلاح هو أن نستبدل حكْم تلك الآيات القرآنيّة والأحاديث القاطعة التي تقرّ استخدام القوّة في نشر الإسلام بين غير المسلمين وفرضه على المسلمين المرتدّين، بحكم الآيات القرآنيّة والأحاديث التي تدعو إلى استخدام الوسائل السلميّة في تحقيق هذين الهدفين، كأساس للقانون الإسلامي.

(١٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٩٣-١٩٤.

«فوفق المعيار الأساسي القائل بأنّه من الواجب فهم القرآن والسنّة في سياقهما التاريخي، سيعمل الإصلاح المقترح على إحلال قانون إسلامي حديث قائم على الآيات القرآنيّة والأحاديث المكّيّة محلّ عناصر الشريعة القائمة على الآيات والأحاديث والممارسات المدنيّة»(١٤).

«... ولذا فإنّه من المنطقي والضروري معاً الآن أن نعكس مسار النسْخ، بأنْ نجعلَ ما كان محكماً من قَبْلُ منسوخاً اليوم، ونجعلَ ما كان منسوخاً في الماضي هو القانون الإسلامي الحديث.

«وفي اعتقادي أنّ نوعيّة الأمّة الإسلاميّة التي تربط بين أفرادها روحُ العدالة والشرعيّة الحقيقيّة هي أرقى بكثير من نوعيّة الأمّة التي يربط بين أفرادها قمع وقهر.

«فما لم يتحوّل أساسُ القانون الإسلامي الحديث عن نصوص القرآن والسنّة في الفترة المدنيّة التي شكّلتْ أسسَ صرح الشريعة، فليس هناك من سبيل إلى تجنّب الانتهاك الجذري والخطير لمعايير حقوق الإنسان العالميّة.

---

(١٤) المرجع السابق نفسه، ص ٢٠١.

«ذلك أنّه ليس بالوسع إلغاء الرقّ كنظام قانوني، ولا استئصال صور التمييز ضد النساء وغير المسلمين، ما دمنا ملزمين بمراعاة إطار الشريعة...

إنّ أساليب الإصلاح التقليديّة في إطار الشريعة لا تكفي لتحقيق الدرجة اللاّزمة من الإصلاح. هذا الإصلاح يستوجب تنحية حكْم نصوصٍ تنتمي إلى الفترة المدنيّة التي أدّت الغرض الانتقالي منها، وتطبيق نصوصِ تنتمي إلى الفترة المكّيّة التي كانت في الماضي غير مناسبة للتطبيق العملي، وهي الآن السبيل الأوحد للإصلاح»[١٥].

فـ «الجهاد، مثلاً، ليس أصلاً في الإسلام»؛ وكذلك «الرقّ ليس أصلاً في الإسلام»؛ و«الرأسماليّة ليست أصلاً في الإسلام»؛ و«عدم المساواة بين الرجال والنساء ليس أصلاً في الإسلام»؛ و«تعدّد الزّوجات ليس أصلاً في الإسلام»؛ و«الطلاق ليس أصلاً في الإسلام»؛ و«الحجاب ليس أصلاً في الإسلام»؛ و«المجتمع المنعزل رجاله عن نسائه ليس أصلاً في الإسلام»[١٦].

---

(١٥) ألمرجع السابق نفسه، ص ٢٢٦.

(١٦) محمود محمّد طه، **ألرسالة الثانية من الإسلام**، ص ١٥٦-١٦٦.

هذا المفهوم التاريخي للشريعة القرآنيّة فهمَه مسلمون كثر[١٧]، لا يمكن أن نتجاهلهم. هؤلاء هم مسلمون لا مرتدّون، مؤمنون لا كافرون، متديّنون لا علمانيّون، جدِّيون لا مستهترون، ملتزمون لا لامبالون...

إنّما هم مسلمون عادوا بالشريعة إلى مكّة، إلى أصولها الروحيّة، أي : إلى توحيد اللّه وعبادته، وإجلال الإنسان ومحبّته، وإلى الدعوة إلى فعل الحسنات ومحبّة كلّ البشر، واحترام حرّيّاتهم في العقيدة والدين والحياة...

هؤلاء، وغيرهم، مضطَّهدون بين المسلمين، لأنّ فهمهم للإسلام يختلف عن فهم الجماعات الإسلاميّة، المتطرّفة منها والمعتدلة، حيث الحكم للّه، والقرآن هو الدستور، والشريعة هي دستور كلّ مجتمع، والحلّ في الإسلام، والسلطة للّه، والدولة دينيّة.. هؤلاء، مضطهَدون بين المسلمين، ومجهولون بين المسيحيّين... يكتشفون اللّه وحدَهم... وهل في وسعِ إنسانٍ أن يعرفَ اللّهَ من دون مُعين؟!

***

(١٧) راجع، مثلاً، كتاب **الجذور التاريخيّة للشريعة الإسلاميّة**، لخليل عبد الكريم؛ و**الشريعة الإسلاميّة**، للمستشار محمّد العشماوي، وغيرهما.

ومختصر الكلام، إنّ القرآن المكّي هو الأصل، وقرآن المدينة هو الفرع؛ وعلى الفرع أن يتبع الأصل. وفي العودة إلى الأصل دين، والوقوف عند الفرع سياسة. وقد يكون على عاتق المستنيرين من المسلمين والمسيحيّين أن يحملوا الناسَ إلى مراعاة "الأصل" لا "الفرع".

وفي الختام، نقول مع محمود محمّد طه:

«هل تريدون الحقّ؟ إذن فاسمعوا!

«لا كرامة لمطلق حيّ على هذا الكوكب، إلاّ ببعث أصول الإسلام.. إلاّ ببعث آيات الأصول التي كانت منسوخة، ونسخ آيات الفروع التي كانت ناسخة في القرن السابع... فليستيقن هذا رجال المسلمين ونساؤهم»[١٨].

---

(١٨) محمود محمّد طه، **نحو تطوير مستقبلي للإسلام**، ص ٣١٧.

ألفصل الرابع

نظرة مسيحيّة إلى محمّد

محمّد رجلٌ عظيمٌ، لا شكّ في ذلك. ولكنّنا للتوِّ نسأل: هل هو عظيم بسبب أنّه «نبيٌّ»، أُنزل عليه كتابٌ من السماء فيه كلُّ شيء؟! أم بسبب أنّه «مصلحٌ» كبيرٌ، أصلح مجتمعاً كان مفسوداً في كلّ شيء؟!

للتوِّ نجيب: ألنظرة إلى محمّد نبيّاً لا يجب أن تصنّفه بين العظماء؛ لأنّ النبوّة، بحسب ما نعرف من المصادر البيبليّة، ومن مراجع «أهل الكتاب» آنذاك، لم تكن، كما يُظَنّ، بالشيء الخارق.

والأنبياء، الذين يذكرهم القرآن، (كآدم، ونوح، وإبراهيم، ولوط، وإسحق، وإسماعيل، ويعقوب، والأسباط، وإدريس، وأليسع، ويونس، وهود، وصالح، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وأيّوب، وشعيب، والياس،

وزكـريّا، ويحـيى...)، لم يـكونوا أكـثـر من قـادةٍ روحـيّين واجتماعـيّين، قادوا شعوبَهم نحو اللّه، وعملِ الخـير، فسّروا لهم الشريعة التوراتيّة تفسيراً ملائماً...

وهذه كلّها ليست محصورةً بمَن نسـمّيهم أنبياء، حتّى نَخُصـَّـهم بإنعـامٍ إلهيّ فـائق!.. وإذا كانَ مـحـمّـد منهم، أو خاتمتَـهم، فهذا لا يـعني أنّه إنسانٌ مميّز بسـبب كونه نبـيّاً؛ بقدر ما أصـبحَ مميّزاً بسبب كونه مصلحـاً إجتماعيّـاعظيماً وقائداً سياسيًّا كبيراً.

***

إنّ النّبوّة، في مفهومها الكتابي، وظيفةٌ روحيّةٌ قياديّةٌ، ظهرتْ في حقـبة معيّنة من التـاريخ اليهودي، بين سنة ٧٦٠ ق.م.، مع عاموس وهوشع، و٢٠٠ ق.م. مـع قسم من دانيال وقسم من باروك. وكانت تقوم مهمّتُها الأساسيّة على تفسير الشريعة تفسيراً روحانيّاً، مقبولاً لأهل زمانها.

هذه المهـمّة قـام بها «الحكـماءُ»، في مـا بعد، أي بعـد انقطاعِ النبوّة، ويقوم بهـا، اليوم، أيُّ إنسـانٍ يتكلّمُ باسم اللّه، ويكرز بكلمـة اللّه، ويحثُّ الناسَ على حفظ شـريعة اللّه، في ممارسة الصّوم والصلاة وأعمال الـبرّ، ويذكّرهم باستمرار

بما عبّر عنه القرآنِ مـئات المرّات، بأنّ: «مَن آمَنَ باللّهِ واليومِ الآخِرِ وعمِلَ صالِحاً فلهم أجرُهم عند ربِّهم»[١].

ثمّ توسّع مفـهوم النبوّة أكثـر، فأُطلِق إسمُ «نبيّ» على كلِّ رجلٍ عظيمٍ من بني إسـرائيل، عاش قـبل هذه الحقـبة، أو بعـدها. فـأصـبح آدم نبـيّـاً، ونوح نبـيّـاً، وإبراهيم، ولوط، وإسحق، وإسـمعـيل، ويعقوب، وبنـوه، وموسى، وهارون، ويشـوع، وشاول، وداود، وسليـمـان، وغيـرهم... أنبيـاء... كلّهم أصـبحوا أنبـياء؛ في حين أنّهم كـانوا في فتـرةٍ لم تكن تُعرف فيها لا نبوّة ولا أنبياء.

هذا وإنّنا نجد أناسـاً كثيرين من بني إسـرائيل تنبّأوا، أي عَرفوا المستـقبلات، وتكهّنوا. فهناك، مثلاً، «مـجموعة من الأنبياء»[٢]، ومن «أبناء الأنبياء»[٣].

وعندما كـان شاول يجـدّ في طلب داود، أرسل رسلَه، «فرأى رسلُه جماعةَ الأنبـياء وهم يتنبّأون. وصموئيل واقفٌ رئيسـاً عليهم. فحلّ روحُ الربّ على رسلِ شاول فـتنبّأوا هم

(١) سورة لقمان ٣١/٨. راجع ما يشبهها في أكثر من مئة موضع.
(٢) ١ صموئيل ١٠/٥-٦.
(٣) ٢ ملوك ٢/٣.

أيضاً. فأُخبر شاول فأرسَل رسلاً آخرين فتنبّأوا هم أيضاً. وعاد شاول فأرسلَ رسلاً مرّة ثالثة فتنبّأوا أيضاً. فذهب بنفسه... فجعل يسير ويتنبّأ... لذلك قيل: «أشاول أيضاً من الأنبياء؟»[٤].

ثمّ إنّنا أيضاً نجد أنبياء عند الكنعانيّين، كأنبياء البعل الأربعمئة والخمسين، وأنبياء عشتروت الأربعمئة[٥]. هؤلاء يَدعون باسم البعل، ويرقصون حول المذبح على أنغام الموسيقى، ويضربون أجسادهم بالسيوف[٦]، تماماً كما يصنع أنبياء بني إسرائيل[٧].

وكذلك أيضاً نجد أناساً في حالة وَجدٍ نبويّة في مَاري على نهر الفرات في القرن الثالث عشر ق.م.، وفي بيبلوس في القرن الحادي عشر ق.م.، وأيضاً نجد رائين ومتنبّئين في حماة على نهر العاصي في القرن التاسع ق.م.، وأنبياء عرب مثل أيّوب، وهُود، وصالِح، وشُعَيب، وبَلعام.

---

(٤) ١ صموئيل ١٩/١٨-٢٤؛ ١٠/١٠-١٢.

(٥) ١ ملوك ١٨/١٩؛ أنظر أيضاً ٢٢/٥-١٢.

(٦) ١ ملوك ١٨/٢٥-٢٩.

(٧) ١ ملوك ٢٢/١-٢٩؛ ١ صموئيل ١٩/٢٠-٢٤.

منهم مَن ورد اسمُه في العهد القديم [٨]، ومنهم مَن ورد اسمُه في القرآن، كما رأينا آنفاً.

***

فالنبوّة، إذاً، في أصلها، لم تكن وقفاً على بني إسرائيل، ولا على بعض المدعوّين من بني إسرائيل، ولا على أناس متّصفين بالصدق واستقامة السيرة.

بل هناك أنبياء من كلّ شعب، وأنبياء من أناس عاديّين، وأنبياء أبناء أنبياء، وأنبياء كبار، وأنبياء صغار، وأنبياء صدق، وأنبياء كذب...

وليس تمنّي موسى بغريبٍ عن منطوق ما نقول بأن تكون النبوّةُ شاملةً وعامّة، فتمنّى يوماً وقال : «ليت كلَّ شعبِ الرّب أنبياء»[٩]. وتمنّى يوئيل أيضاً أن يفيض اللّهُ روحَه «على كلِّ بشر، فيتنبّأ بنوكم وبناتكم»[١٠].

***

---

(٨) رَ: عدد ٢٢-٢٤.

(٩) عدد ١١/٢٩.

(١٠) يوئيل ٣/١-٢.

هذه الحقيقة في شمول النبوّة، عبّر عنها القديس بولس خيرَ تعبير فقال: «إنّ في وسعِكُم جميعًا أنْ تَتَنَبَّأوا وَاحِداً فَوَاحِداً»[١١]؛ «وأكثرُ رَغْبَتي في أنْ تَتَنَبَّأوا»[١٢]. لهذا، كان أنبياء في كنيسة أورشليم[١٣]، وأنبياء في أنطاكية[١٤]، وأنبياء في أفسس[١٥]، وأنبياء ونبيّات في قيصريّة[١٦]، وأنبياء في قورنتس[١٧].

«والنبوّة.. موهبة يفيضها الروح القدس على جماعة المؤمنين[١٨]، ويخصّ بها بعضاً منهم فيُدعَون أنبياء[١٩]، مثل أغابوس[٢٠]، ويهوذا وسِيلا[٢١]، وهم دون الرسل رُتبةً[٢٢]،

---

(١١) ١ قورنتس ١٤/ ٣١.

(١٢) ١ قور ١٤/ ٥.

(١٣) أعمال الرسل ١١/ ٢٧؛ رَ: ١٥/ ٣٢، و٢١/ ١٠...

(١٤) أع ١٣/ ١: «وكان في الكنيسة التي في أنطاكية بعضُ الأنبياء والمعلِّمين، هم: برنابا، وسِمعان الذي يُدعى نِيجِر، ولوقيوسُ القيرينيّ، ومَنَاينُ رُبِّيَ مع أميرِ الرُّبعِ هيرودُس، وشاول».

(١٥) أع ١٩/ ٦: «... ووضع بولسُ يَديه عَليهم (أي تلاميذ من أفسس)، فنزلَ الروحُ القدس عليهم، وأخذوا ... يَتَنَبَّأون».

(١٦) أع ٢١/ ٩: «وكان له (أي فيلبّس) أربَعُ بنات عَذارى يتَنَبَّأْنَ».

(١٧) ١ قورنتس ١٢/ ٢٨: «والذينَ أقامهمُ اللّهُ في الكنيسةِ همُ الرّسُلُ أوّلاً، وَالأنْبِيَاءُ ثانياً». راجع أيضاً: ١ قور ١٢/ ١-١٢: عن تنوّع المواهب ووحدتها، ومنها النبوّة (آية ١٠).

---

(١٨) تث ١٨/١٨؛ ٢ بط ١/٢١؛ متى ٥/١٢؛ رسل ٢/١٧-١٨؛ ١٩/٦؛ ١ قور ١١/٤-٥: "كلُّ رجلٍ يُصلّي أو **يتنبّأ**.. وكلّ امرأةٍ تُصلّي أو **تتنبّأ**."؛ ١٤/٢٩: "وإنْ كان **أنبياء** فليتكلّم اثنانِ أو ثلاثة، وليَحكُمِ الآخَرون. (٣١): فإنّ في وُسْعِكُم جميعاً أن **تتنبّأوا** واحداً فواحداً، لكي يتعلّمَ الجميعُ ويُعَزّى الجميع. (٣٢): **وأرواح الأنبياء تخضعُ للأنبياء**...(٣٧): إذا كان أحدٌ يظن أنّه **نبيّ** أو روحاني، فليَعرِفْ أنَّ ما أكتُبُ به إليكم، إنّما هوَ وصيّةٌ من الرب... (٣٩): إذاً يا إخوتي، غاروا على **التنبّؤ**، ولا تَمنَعوا التكلُّمَ بألسِنة". في هذا النّص، «يُخضع بولس النبوءة لحكم الجماعة (٢٩)، مع الاحتفاظ بحريّة المتنبّئ (٣٢)»، (إوَنْجِلْيون ١ قور ١٤/٢٩-٣٣).

(١٩) أع ١١/٢٧: "في تلك الأيّام هبط **أنبياء من أورشليم** إلى أنطاكية"؛ ١٣/١: "كان **في أنطاكية، في كنيستها، أنبياء** ومعلِّمون"؛ ١٥/٣٢: "وكان **يهوذا وسيلا نبيّين** أيضاً"؛ ٢١/٩، ١٠: "وكان له (لفيلبّس) **أربعُ بناتٍ عذارى متنبّئات**. وأقَمنا عدّة أيّام، فانحدر من اليهوديّة **نبيٌّ اسمه أغابُوس**".

(٢٠) أع ١١/٢٨؛ ٢١/١٠.

(٢١) أع ١٥/٣٢.

(٢٢) ١ قور ١٢/٢٨-٢٩: "فقد وضع اللّهُ في الكنيسة أوّلاً رُسُلاً، ثانياً أنبياء، ثالثاً معلِّمين، ثمّ مُعجِزات، ثمّ مواهب شفاء، وإسعافات، وتدابيرَ، وأنواعَ ألسِنَة. هل الجميعُ رسُل؟ هل الجميعُ أنبياء؟ هل الجميع معلِّمون؟ هل الجميع فاعلو مُعجزات؟.." يفسّر إونجليون: ألأنبياء: هم المبشّرون والواعظون الملهَمون المكمِّلون لعمل الرسل"؛ أف ٤/١١: "وهو جعل بعضاً رسلاً، وبعضاً أنبياء، وبعضاً مبشّرين، وبعضاً رعاة ومعلِّمين، تأهيلاً للقدّيسين لعمل الخدمة".

ودورهم في الكنيسة أهمّ من التنبّؤ بالمستقبلات[٢٣]، أو قراءة الأفكار[٢٤]. إنّه شرح الكتب المقدّسة، ولا سيّما كتب الأنبياء القدامى، بهدي الروح القدس»[٢٥].

وسوف يقول القديس بولس بأنّ النبوّات تزول ذات يوم: «النبوّات تُبطَل. والألسنة تَنتهي. والمعرفةُ تُبطَل. لإنّا نعرف معرفةً ناقصة. ونتنبّأ تنبؤًا ناقصًا فمتى جاء الكامل يبطل الناقص»[٢٦]. والكامل جاء مع المسيح، الذي فيه كشف اللّهُ عن ذاته للإنسان

هذا الكلام يعني: إنّ الذين نالوا الملءَ والكمال ليس لهم أن يعودوا إلى الناقص والجزئي. والذين نالوا الرّوح القدس وأمسَوا هياكلَ له ليس عليهم أن يعودوا إلى إيحاءاتٍ نبويّة غامضة. والذين نالوا الخلاص بيسوع المسيح ليس عليهم أن ينتظروه من أيِّ نبيٍّ، أو رسولٍ، أو وحيٍ، أو دينٍ آخر...

***

---

(٢٣) أع ١١/٢٨؛ ٢١/١١.
(٢٤) ١ قور ١٤/٢٤-٢٥؛ ١ طيم ١/١٨؛ ٤/١٤.
(٢٥) أنظر حاشية على أع ١١/٢٧، في "إونجليون"، ص ٥٦٠.
(٢٦) ١ قور ١٣/٨-١٣.

هذه النظرة إلى النبـوّة، وإلى مؤسّسـات العهـد القديم كلّها، قـال بها يسوعُ نفسه عندما أشـار إلى أنّ هذا الهيكل، وكلَّ ما يرمزُ إليه، سوف يُهـدَم، وسوف يُعبَد اللّهُ، لا في هذا الجـبـل، ولا في أورشلـيم، بل بـالروح والحقّ، وفـي كلّ مكان[٢٧].

ومجيء المسيح على الأرض لم يكن، كما يَظنّ كثيرون، لإبطال النبـوءات، والاستـغناء عنها؛ بل، بالعكس، كـان من أجل توسيعـها، حتى تشمل شعبَ اللّه بجمـيع أفراده. تماماً كما تمنّى موسى[٢٨] وتنبّأ يوئيل[٢٩]، ورغب بولس[٣٠]، وأعلنَ بطرسُ في يوم العنصرة، إتمامَ هذه النبوّة وشمولَها: فروح الرّبّ أفـيض على كلّ ذي جسـد؛ والرؤيا والنبوّة صـارا من الأمـور العاديّـة في شعب اللّـه الجديد؛ والمواهب الـروحيّـة بالنبـوّات، والقداسة بالإيمان والأعـمال توافـرت كثـيراً في الكنيسة[٣١]...

---

(٢٧) يوحنا ٤/ ٢١-٢٤.

(٢٨) عدد ١١/ ٢٩.

(٢٩) يوئيل ٣/ ١-٢.

(٣٠) ١ قور ١٤/ ٥.

(٣١) رَ: أع ١١/ ٢٧-٢٨؛ ١٣/ ١؛ ٢١/ ١٠-١١.

والحقّ يُقال: إنّ «التعليمَ النبويّ لن ينقضي مع عهدِ الرسل، وإلاّ لكان من العسير إدراكُ رسالة الكثيرين من قدِّيسي الكنيسة...»[٣٢].

***

هذا كان في العهد القديم، وفي العهد الجديد، والكنيسة الأولى. وهو أيضاً سوف يكون في عصر محمّد، مع "أهلِ الكتاب" في مكّة والحجاز. لقد كانت النبوّة عند نصارى مكّة وظيفةَ مَن «يبشّر» الناس، و«يبلِّغهم» كلمةَ اللّه، و«ينذرهم» بعذابٍ أليم. وكان النبيّ، عندهم، هو «البشير و النذير». والنبوّة، والحال هذه، لم تكن تلك المؤسّسة الرّوحيّة المختارة من اللّه، ولا تلك الموهبة السامية التي يُنعِم بها اللّهُ على أناسٍ من دون أناس. إنّها «بشارة و إنذار»: بشارة بالسعادة الأبديّة، وإنذار بالهلاك العظيم.

والنّبيّ لم يكن، في قبيلته وبين شعبه، على غير ما كان عليه «مُلهمون» Inspirés و«راؤون» Voyants و"متنبّئون" Prophètes، و«شعراء»، و«عرّافون»، و«منجِّمون»،

---

(٣٢) Vocabulaire de Théologie Biblique, (Prophète)

و«سحرة»، و«كهنة»... فالتنبّؤ مألوفٌ بين هؤلاء، في استطلاع الغيب[٣٣]، ومعرفة مشيئة الآلهة، والتكلّم باسمها، واستراق السمْع[٣٤]، وتبصّر المستقبلات، واكتشاف الأسرار، واستحضار الأرواح، ورؤية الملائكة والشياطين والجنِّ وما إلى ذلك...

ولم تخلُ بيئةُ محمّد من هؤلاء المتنبِّئين : فكتبُ السيرة مليئة بمن تنبّأ بمجيئه، واكتشفَ نبوّتَه، وعرف مستقبلَه، وتكهّن بما سيكون مصيره، وبما ستؤول إليه رسالته؛ بدءاً بالقسّ ورقة بن نوفل، والراهب بحيرا، والراهب سرجيوس، من بصرى حوران، والرّاهب عيص من الشام، والرّاهب

---

(٣٣) وكان اللّه مراراً يُطلع النّبي على الغيب. قال: " ذاك من أنباء الغيب نوحيه إليك..." (٣/ ٤٤). وقال: " تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك" (١١/ ٤٩؛ ١٢/ ١٠٢). واللّه وحده عالِم الغيب. قال: "عالِمُ الغيب فلا يُظهِرُ على غيبه أحداً إلاّ مَن ارتضى من رسول..." (٧٢/ ٢٦-٢٧). وكان محمّد مراراً، لكي لا يكون كسائر المتنبّئين والسحرة، يرفض إمكان معرفة الغيب. قال: " قل لا أقول لكم عندي خزائن اللّه. ولا أعلم الغيب. ولا أقولِ لكم إنّي مَلَك..." (٦/ ٥٠؛ ١١/ ٣١). وقال: "... ولو كنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخير وما مسّني السوءُ" (٧/ ١٨٨).

(٣٤) إشارة إلى ما ورد في القرآن بما اتّهم به محمّد من أنّه يسكنه جنّ يسترق السمْعَ من أبواب السماء. (أنظر: س. الحجر ١٥/ ١٨).

عدّاس النينوي، وخديجة نفسها التي كانت تعرف ما سيكون عليه بعلُها. عدا عن الأحبار والعرّافين وملوك فارس والروم والحبشة والقبط... حتّى إنّنا، لكثرة مَن تنبّأ عن محمّد، بتنا نتساءل، لا عن صحّة ما تنبّأوا به، بل عن هذا المناخ العام الذي توافرت فيه التنبّؤات حتى شملت جماعاتٍ وأفراداً.

ومحمّد نفسه لم يسلم، في هذا المناخ، من تهمٍ كثيرة وضعتْه في خانة المتنبّئين والسحَرة والكهّان والشعراء والمتعاطين مع الجنّ. وكان دائماً يرفض أن يكون منهم؛ ذاك لأنّ الإصلاح الروحي والاجتماعي العظيم الذي جاء به، صيّره، لشدّةِ حاجةِ الناسِ إليه، نبيًّا عظيماً من بين العظماء.

***

فالجنّ أنفسهم كانوا قد اضطَرَبوا، وهم يتنصّتون على السماء ليسرقوا الوحي: «قالوا: يا قومَنا! إنّا سمعنا كتاباً أنْزل من بعد موسى» (س. الأحقاف ٤٦/ ٣٠)؛ وقالوا: «إنّا سمعنا قرآناً عجباً. يهدي إلى الرشد فآمنّا به» (س. الجِنّ ٧٢/ ١)؛ وقال محمّد: «قلْ أوحي إليّ أنّه استمع نفرٌ من الجنّ» (س. الجِنّ ٧٢/ ١)؛ وقال: «إذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن» (س. الأحقاف ٤٦/ ٢٩)...

وكذلك اتُّهم محمّد مراراً بأنّه يتعاطى **السحْر**؛ وأنّ القرآن عمل ساحر، والنّبي رجل مسحور. قال: «فقال الذين كفروا منهم إنْ هذا إلاّ سحرٌ مبين» (٥/ ١١٠)[٣٥]؛ «فلمّا جاءهم الحقّ من عندنا قالوا: إنْ هذا لسحر مبين» (١٠/ ٧٦)؛ وقال: «هل هذا إلاّ بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون» (٢١/ ٣)؛ وقال: «فلمّا جاءتْهم آياتنا مبصرة قالوا: هذا سحر مبين» (٢٧/ ١٣)؛ وقال: «ولمّا جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنّا به كافرون» (٤٣/ ٣٠)؛ وقال: «أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون» (٥٢/ ١٥)؛ وقال: «وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر» (٥٤/ ٢)؛ وقال: «.. إن هذا إلاّ سحر يؤثر» (٧٤/ ٢٤)؛ و«قال الكافرون: إنْ هذا لساحر مبين» (١٠/ ٢)؛ و«قال للملإ حوله: إنْ هذا لساحر عليم» (٢٦/ ٣٤)؛ «وقال الكافرون : هذا ساحر كذّاب» (٣٨/ ٤)؛ «وقالوا: يا أيّها الساحر ادْع لنا ربّك بما عهد عندك (٤٣/ ٤٩)؛ و«.. يقول الظالمون إنْ تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً»[٣٦]..

---

(٣٥) رَ: ٦/ ٧؛ ١١/ ٧؛ ٣٤/ ٤٣؛ ٣٧/ ١٥؛ ٤٦/ ٧؛ ٦١/ ٦.

(٣٦) س. الإسراء ١٧/ ٤٧؛ س. الفرقان ٢٥/ ٨.

ثمّ يدفع محمّد عنه تهمة قرضِ **الشّعْر**؛ فالقرآن ليس شعراً، ولا خيالاً، ولا حلماً؛ ومحمّد لا ينتمي إلى طغمة الشعراء، ولا هو يتعاطى الشعر مثلهم، ولا آياته خاضعة للنظم والقوافي الشعريّة. قال: «وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إنْ هو إلاّ ذكر وقرآن مبين» (٣٦/ ٦٠)؛ و«.. قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر» (٢١/ ٥)؛ «ويقولون : أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» (٣٧/ ٣٦)؛ «أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون» (٥٢/ ٣٠)؛ وقال: «وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون» (٦٩/ ٤١)...

وأخيراً ينفي النّبيّ عن نفسه تهمة الجنون. فهو ليس **بمَجنُون**؛ بل هو نذير، وبشير، ورسول اللّه. قال: «أو لم يتفكّروا ما بصاحبهم من جِنَّةٍ إنْ هو إلاّ نذير مبين» (٧/ ١٨٤)؛ وقالوا: «إنْ هو إلاّ رجل به جِنّة فتربّصوا به حتّى حين» (٢٣/ ٢٥)؛ «أم يقولون به جِنّة بل جاءهم بالحقّ وأكثرهم للحقّ كارهون» (٢٣/ ٧٠)؛ وقالوا: «أفترى على اللّه كذبا أم به جنّة» (٣٤/ ٨)؛ وقال: «ما بصاحبكم من جنّة إنْ هو إلاّ نذير لكم» (٣٤/ ٤٦)؛ «وقالوا: يأيّها الذي نزل عليه الذكر إنّك لمجنون» (١٥/ ٦)؛ و«قال إن رسولكم الذي أرسل

إليكم لمجنون» (٢٦/ ٢٧)؛ «ويقولون أئنّا لتاركون آلهتنا لشاعر مجنون» (٣٧/ ٣٦)؛ «ثم تولوا عنه وقالوا معلّم مجنون» (٤٤/ ١٤)؛ «فتولّى بركته وقال ساحر أو مجنون» (٥١/ ٣٩)؛ و«كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحراً أو مجنون» (٥١/ ٥٢)؛ وقال: «فذكّر فما أنتَ بنعمة ربّك بكاهن ولا مجنون» (٥٢/ ٢٩)؛ «كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر» (٥٤/ ٩)... وقال: «ما أنت بنعمة ربّك بمجنون» (٦٨/ ٢)؛ «ويقولون إنّه لمجنون» (٦٨/ ٥١)؛ وقال: «وما صاحبكم بمجنون» (٨١/ ٢٢)؛ «قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله» (١٧/ ٨٨)؛ و«ومن الجنّ مَن يعمل بين يديه بإذن ربّه» (٣٤/ ١٢)...

ومحمّد، أخيراً، ليس بـ **كاهِن**، ولا يتعاطى الكهانة، ولا يقدّم الذبائح للآلهة، ولا القرابين؛ ولا يدخل في مؤسّسة كهنوتيّة؛ ولم يؤسّس كهنوتاً... يدعوه القرآن بقوله : «فذكّر فما أنتَ بنعمة ربّك بكاهن ولا مجنون» (الطور ٥٢/ ٢٩)؛ «ولا يقول كاهن قليلاً ما تذكّرون» (الحاقة ٦٩/ ٤٢).

***

نتـيجـة لهـذه النظرة التـاريخـيّة إلى النبـوّة، لم يعـد اعتـبارُنا لنبوّة محـمّد شيـئاً مجيـدًا، ولا التزامُه بها شــرفاً أثيلاً... وسوف تكون أهمّـيّته متأتّيةً من شـيء آخـر أبدع فيه وأفلح، وذهب فيه بعيداً ونجح. هو دوره في إصلاح مجتمعٍ فاسـدٍ بأمِّه وأبـيه، ونجاحِـه في ما قـام به ودعا إليـه. هذا النجـاح كـان في مـجالات عـدّة : روحـيّـة، واجـتـماعـيّـة، وسياسيّة، وتشريعيّة...

فـعلى الصعـيـد الرّوحي، عاد مـحـمّد بالإسـلام إلى صفائه، إلى زمن الأنبـياء، قبل أي تحزّب. ودعـا إلى تبسيط العـقيـدة الدِّينيّـة، وعلّم أنْ "لا إله إلاّ اللّه"، وكـفى. وتخطّى بذلك، اختـلافاتِ المسـيحيّين في ألـوهيّة المسيح، وطبـيعـتِه، وصلبِه، وقيامتِه... ومـا إلى ذلك. وكذلك دعا إلى كتابٍ واحدٍ يجمع فيـه تعاليمَ سائر الكتب المختلفـة. و"الجمع" هو معنى آخَر لكلمة "قرآن" من "قرن قراناً".. ودعا أيضاً إلى توحيد الشِّيع المتقاتلة بسبب اختلاف العقيدة. فنجح.

وعلى الصعيد الإجتمـاعي، استطاع محمّد، وهو يعيش في مجـتمع تجـاري منقسمٍ إلى أغنياء وفـقراء، أن ينتـصر للفقـراء، ويولي اليتامى والأرامـل عناية فائقة. ومـا دعوتُه،

مثلاً، إلى الزّواج " مـثنًى وثلاث ورباع " إلاّ من أجل اليتامى والأرامل. وفي قراءتنا لآية النساء بيان قصده واضحاً. قال : "... وإنْ خِفْتُمْ ألاَّ **تُقْسِطُوا فِي اليَتَامَى** فَانْكِحُوا ما طابَ لكم منَ النِّساء " (س. النساء ٤/٢-٣).

فالدعوة إلى الزواج من أربع كانت من أجل اليتامى، لا من أجل النساء، من أجل الرحمة لا من أجل الشهوة.

ثمّ إنّ مكّة، كانت «بلدة ميتة»[٣٧]، «أذاقها اللّهُ لباسَ الجوع»[٣٨]. ولشدّة الجوع، عمد بعضُ الناس إلى قتلِ أولادهم، فحذّرهم القرآن: «لا تقتلوا أولادَكم خَشْيَةَ إملاق. نحنُ نَرْزُقُهُم وإيَّاكم»[٣٩]؛ كما حذّر الذين يبيعون بناتِهم للزنى ليكسبوا أجورَهنّ: "لا تُكرِهوا فَتَياتِكم على البغاء لتبتغوا عرضَ الدنيا»[٤٠].

لقد كانت الثروة كلُّها في أيدي قلّة من التجّار، تتحكّم بحياة الناس.. وكان الفقراء لا يحصى عددهم. وكان محمّد

---

(٣٧) ٢٥/٤٩؛ ٤٣/١١؛ ٥٠/١١؛ أو "بلد ميت" (٣٥/٩؛ ٧/٥٧)؛ و"أرض ميتة" (٣٦/٣٣).

(٣٨) سورة النحل ١٦/١١٢

(٣٩) سورة الإسراء ١٧/٣١؛ سورة الأنعام ٦/١٥١.

(٤٠) سورة النور ٢٤/٣٣.

منهم. تكفّل بتربيتـه أفقرُ أعمامه، وعندما بلغ الثـالثةَ عشرة، قال له عـمُّه مرّة: "يا ابنَ أخي! أنا رجلٌ لا مـال لي، وليس ما يمدّنا ومـا يقوّمنا، ولا تجـارة»[٤١]؛ وقـال مرّة أخـرى: "أنا رجل كثير العِيـال قليل المال". ونصحه أن يذهب إلى خديجة فتعطيه ما به يعيش. فذهبَ. وعمل في خفارة قوافلها، ورحل إلى الشـام، برفقـة الآلاف من الفقـراء أمثـاله. وكان يسـمع شكواهم، ويتحسّس تظلّمَهم، ويتألّم لأحوالهم.

لم يكن لمحمّد شيءٌ من مقوِّمـات الحياة. لقد مات والده وهو جنين. ثم ماتت أمّه وهو طفلٌ دون السـادسة. ولم يترك له الاثنان شـيئـاً: لا أخ ولا أخت. لا إبل ولا مال. لا أرضـون للزراعة ولا سلعـة للتجـارة... هذا الحرمان رقّم حـياتَه في الصميم. وشبّ الولدُ وكبُر؛ فكبر معه الحرمان ونمى. ولا بدّ من أن يؤدّي به إلى شيء!

والمفروض ألاّ يؤدّيَ إلى أمـرٍ وسط. فَمِثْلُه إمّـا تحطِّمُه الحياةُ فلا يعود له شأن يُذكـر؛ وإمّا يقلبُ المجتمعَ رأساً على عقب، حتّى لا يعود المجتـمعُ يُعرَفُ الاّ بالنسبة إليه. ألمهمّ في

---

(٤١)ابن سعد ١/ ١١٩ و١٥٦ و١٦٨؛ السيرة الحلبيّة ١/ ١٤٧.

مــثل هذه الحال أن يَحظـى الـولد بمربِّين ومدرِّبين قـادرين، وأن تتـفاعل نـفسـيّـتُه بما حُـرم منه، وأن تُعطى له فـرصُ النجاح. والظاهر أنّ الأجواء كانت مهيّأة للقيام بالمقصود...

وشـهـد محمّد، في مـا بعد، على حيـاته التعيـسة التي عاشـها في طفولته. وكان دائماً يتذكّر يُتْمَه، فكان يدعو دائماً: «إرْحَمـوا اليتَـامَى، وأكرِموا الغـرَباء. فإنّي كنتُ في الصِــغَر يَتيـمًا، وفي الكِبَرِ غَـريبًا»[٤٢]. والقرآن يذكّره إن نسـي: «ألمْ يَجِدْكَ يَـتيمـاً فآوَى! وَوَجَـدَكَ ضَالاً فَـهَدَى! وَوَجَـدَكَ عَائِلاً فَأغنَى!»[٤٣]. ويذكّره بأيّامِ فقره وتعاســته، بعد ما شبّ وكثر مالُـه بزواجه من السـيّدة خديـجة، فيـقول: «ألمْ نَشـرَحْ لكَ صَدرَكَ، وَوَضَعْنا عنكَ وِزْرَكَ، الّذي أنْقَضَ ظَهْرَكَ، ورَفَعْنَا لكَ ذِكرَكَ؟! إنَّ معَ العُسرِ يُسْراً. إنّ معَ العُسْرِ يُسْراً»[٤٤].

لقد كـان محمّـد يخالط الناسَ، يشــاهد، ويسجّل، منذ صغـره، ما يراه أمام عينيـه من صراع في مجـتمعِ مكّة، بين

---

(٤٢) السيرة الحلبية، ١/ ٨٢.

(٤٣) سورة الضحى ٩٣/ ٦-٨.

(٤٤) سـورة الشرح ٩٤/ ١-٦. يفـهم المسلمـون بشرح الـصدر معجـزةً أحدثها الملاك في شقّ صدر محمّد لمّا كان طفلاً.

الأغنياء المترَفِين والفقــراء المرذولين. وكان ينفعل للظلم يلحق بهؤلاء المساكين، وهم القِسم الأكبر من سكّان مكّة.

وكان القرآن يذكّر الأغنيــاءَ بأنّ ما لهم من بنين وأموال لا يفيدهم شيئاً. وبسبب غناهم بقوا بعيدين عن دعوة محمّد: «وَمَــا أرْسَلْنا في قــريةٍ مِن نذيرٍ إلاّ قــالَ مُــتـرَفُــوها: إنّا بما أُرسِلتُم به كافرون. وقالوا: نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً.. قلْ.. مَا أمْــوالُكم ولا أولادُكم بــالتي تُقَــرِّبُكُم عندَنــا زُلفَى إلاّ مَن آمنَ وعَمِلَ صالِحاً. فــأولئكَ لهم جَزاءُ الضِّعْفِ بما عَمِلوا وهُم في الغُرُفاتِ آمِنون»[٤٥]

وفي اليــوم الأخــيــر، ســوف لا ينفــعــهم، لا المَالُ ولا البَنون. ولا يســتطيع أحــدٌ أن يفيــدَ أحداً. في ذلك اليــوم «لا يَمْلِكُ بعــضُكم لبعضٍ نَفْــعاً وَلا ضــرّاً. ونقولُ للذين ظلــموا: ذوقوا عذابَ النّارِ التي كنتم بها تُكَذِّبون»[٤٦].

وفي النتيجة، يبدو لنا أنّ رسالةَ محمّد كانت عظيمةً، لا بسبب أنّها وحي سماويٌّ؛ بل بسبب أنّها حركةٌ دينيّة، ثوريّةٌ،

---

(٤٥) سورة سبأ ٣٤/ ٣٤-٣٧.

(٤٦) سورة سبأ ٣٤/٤٢.

تصحيحيّةٌ، إجتماعيّةٌ، روحيّةٌ... إنّها عظيمةٌ، لا بسبب أنّ صاحبها نبيٌّ ميّزَهُ اللّهُ بما لا يعود الفضلُ فيه إلاّ لجبريل، بل بسبب أنّ ثورتَه الإجتماعيّة قلبت أسسَ المجتمعاتِ العربيّة، وظلْمَ الدّولَتَين الكبرَيين آنذاك.

ونجحتِ الرسالةُ لأنّ صاحبَها استطاعَ أن يربط تعاليمَه الإجتماعيّة الثوريّة بالأفق الأعلى، بعمُدِ السماء، باللّه، وباللّوح المحفوظ، حتّى تفعل في النّاس فعلَها، وتستمرّ، وتجمعَ حولها أكبرَ عددٍ من المؤيِّدِين. فكان له ما شاء.

وبات من المؤكّد، عند باحثين كثر، أنّ مناهضةَ قريشٍ لمحمّد، لم تكن بسبب دعوتِه إلى دينٍ جديد، ولا إلى إلهٍ مجهول، ولا إلى تعاليمَ جديدة، لا يعرفها أهلُ قريش... أهلُ قريش، منذ أيّام جَدّهم الأعلى قُصَيّ ومؤسّسِ مُلْكِهم، كانوا قوماً تجّاراً. والتّاجر يميل في طبعه إلى السلم والمهادنة والتسامح. فهم يقبلون في كعبتهم أيَّ إلهٍ كان، وأيَّ دينٍ كان... وقد كان في الكعبة، يوم دخلَها النّبيّ، أكثر من ثلاثمائة وخمسةٍ وستّين إلهاً. فلن يزعجهم إلهٌ جديد، أو تمثالٌ لإله جديد؛ بل قد يفيدهم هذا الإله إذا ما كان وراءه عابدون جُدد يُستفاد منهم.

فـمن المؤكّـد، إذاً، أنّ السـبب الواضح الذي قـامت من أجله قـيامـةُ قـريشٍ على محـمّـد كان في دعـوته إلى ثورةٍ إجتمـاعيّة أطاحت بالأغنياء، أي القسم الأكـبر منهم. وهذا ما حدث. ألم يقل محمّدٌ يوماً، وفي الـقرآن نفسِه، للذين خاضوا مـعه مـعركـةَ بَدْرٍ التي منهـا وفيـها كـانت البداية : "وَلَقَـدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ" (س. آل عمران ٣/١٢٣)!! وكم كان يستشـهد محمّدٌ بأولئك الذين لم يسـمَعوا دعوةَ نوح، إذ اتّهموه بقولهم : "وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاّ الّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا" (س. هود ١١/٢٧)، أو بقـولهم عندما "قَـالُوا: أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَـعَكَ الأَرْذَلُون!" (س. الشعراء ٢٦/١١١)!!

***

فالنظرة إلى مـحمّد إذاً نظرتان: نظرة إليه نَبِيًّا ونظرة إليـه مُصلحـاً. وفي اعتـقادِنـا، أنّ الفضل كلّ الفـضل له في دوره مصلحاً. ومـا كان انتماؤه إلى صنف الأنبيـاء إلاّ دعماً لهذا الدور. وفي اعتقادنا أيضـاً أنّ مثلَ هذه النظرةِ التاريخيّة تَرُدُّ الفضلَ فيها إلى محمّد لا إلى جبريل الذي لم يُفِدْنا سوى الزّعم بأنّه استـلب القـرآن من "اللّـوح المحفـوظ" من كـبد السماء منذ الأزل.

ختام الكلام

إنّ موقف المسيحيّين من **المسلمين** يجب ألاّ يكون إلاّ موقف محبّة واحترام وانفتاح. هذا لهم، لا من ميزتهم الإنسانيّة فحسب، بل ومن صميم رسالة التجسّد الذي كان من أجل الإنسان، أيِّ إنسان.

وموقف المسيحيّين من **الإسلام** القرآني موقف مؤيّد؛ لأنّه هو والنصرانيّة يؤلّفان تراثاً واحداً مشتركاً؛ ومن إسلام ما بعد القرآن موقف رفضٍ، بسبب مفهومٍ إستقلاليّ عدائيّ، "جهاديّ"، دخلَ الإسلامَ زمنَ تأسيس الدولة في يثرب، وزمن الفتوحات.

وموقفُ المسيحيّين من **القرآن** موقفٌ مؤيِّدٌ لما جَاء في قرآن مكّة، وهو "الأصل"، لأنّه يُعلّم تعاليم النصرانيّة التي كانت في الجزيرة العربيّة آنذاك؛ وموقفٌ رافضٌ لقرآن المدينة الذي "نسخَ الأصل"؛ وشرّع لمجتمعٍ، يقول المسلمون

فيـه، إنّه مسـتـمـرٌّ فيــهم حتّى اليــوم. والقول بــاستمــراريّة الشــريــعــة إلى الأبد ينال، مــن دون شكّ، من مــحــبّـــة اللّهِ للإنسان.

وموقفُ المسيحــيّين أخيراً من **محمّد** موقفــان: موقفٌ فيه محمّد رجلُ إصلاحٍ عظيـمٍ لمجتمعٍ تجاريٍّ فاسد؛ وموقفٌ فيه محـمّد رجلٌ عاديٌّ حاول أصحابُه، لكي تستمــرّ تعاليمُه، أن يدرجوه بين النّبـيّين. والإدراجُ هذا لم يزده مجـداً، بمقدار ما زاد التاريخَ تأزّماً.